"مرحب بالناجي"

كان هذا صوت الحارس الأجش الغليظ؛ صوته سحب بساط النوم من عيون النزلاء، ربما نبالغ قليلًا؛ فالشمس لا تزور هذا المكان لأسباب تقر في قلوبهم الباردة تجلدهم بها نفوسهم اللوامة، وتبعث في بعضهم الفخر وهو ينظر إلى الفراغ ويقول "أنا عقاب الله فيكم".

كان هذا الصوت إشارة بأن أحد ما سينجو من الموت هنا، لم يغادر الأمل فيهم أحد وقد شك قلبه وزاد من خفقانه، يرفعون أياديهم المكبلة ويتهامسون بالدعاء والتضرع، ولكن تضربهم أنفسهم بسؤالها قائلة "أتخدع ربك يا لعين؟!

ينزل أشدهم قسوة وعيونه تسح دمعًا ويتمتم:
-ما أغبي ابن آدم حين يشم الأمل!

يبقى من بين هذا المهرجان حجرة هادئة لا يهم معرفة مساحتها ولا ما تحويه من أشياء، ما يهم هنا هو الظلام والهدوء مع تهيئة نفسية بالحديث والكلام، شرك يوقع المسكين في يد أبشع جلاد وللأسف هو من كان أجمل رفقائه؛ خياله الذي يتهاوى على عاتقه آيات الخوف، ويكون صراخه في الغرفة الجماد صورًا حية تجعل قلبه ينخلع من الرعب والفزع، غالبًا يترامى على مسامع من يمر بهذه الغرفة صيحات الغضب تارة والرجاء مشوبًا بالندم تارةً أخرى، يقبع في هذا المكان رجلًا مكبلًا بأصفاد ثبتته في أحد زواياها، يسمع دب قدمي الحارس وصوت المفاتيح المستكة بإزعاج يجعل يضع يده بين كفيه يفرك عينه ثم صاح: من سعيد الحظ؟

تجاهله الجندي ثم حرك المفاتيح يبعث بها الصمت والترقب بينهم يضع المفتاح في مكانه ببطء يكاد يجعل المساجين ينحرون أنفسهم بقيودهم.

تتسلل أحد الأنوار الباهتة لتزعج صاحبنا فوضع يده بين كفيه يفرك عينه، يدخل السجان صاحب الشارب الكث يعبث بكعب حذائه، وما أن أدركه اليأس قال ساخرًا:
-أعجبتك الجلسة هنا؟

تجاهله بالصمت فلكزه بقدمه قائلًا: يا أبله، انظر لهؤلاء هم أحرص بالحرية منك

-حمقى

-ماذا؟

-مثلما سمعت

-أنت ما زلت تحت سلطتي

جذبه من شعره الكثيف، تطاير اللعاب من وجهه لوجه السجين غضبًا ثم تركه، أخذ يملئ فمه سبابًا ولعنًا؛ لم يكن ير في حياته من يزهد في أهم شيء يحرص عليه البهيم

تماسك السجين قائلًا: أنا قاتل، كيف الحرية لسافك دم

-حظك يا رجل، لا تلقِ النعمة

-كيف؟

-الأدلة غير كافية، تحولت لانتحار

-عدالة ورقية عمياء، أنا معترف بذنبي

قطب حاجبيه الرفيعين قائلًا:
-لا أدري ما سر تمسكك بهذا المكان، نحن نتمنى الفرار منها في أي وقت

تنهد قائلًا:
-كنت أبحث عن ميتة كلاسيكية تليق بي، كنت أفتش عن انتحار بلا عقاب ووجدته هنا

- أتبحث عن الموت؟

-ولم لا، لكن قد تبين أنني لن أموت الآن، لا بأس

تمتم قائلًا:
-الموت رحمة لأمثالي، لذلك فهو بعيد

قلب الجندي كفيه عجبًا ثم هم بفك الأصفاد عن جسد السجين الهزيل ثم جذبه وهو يصيح:
-أكثرت الجدال فأتعبتنا، هيا قم معي لأتم بعض الإجراءات

أذعن لأوامره فاعتدل متوجعًا من صرخات عظامه فقال الحارس: لا نريد رؤية وجهك هنا؛ ربما سنحجز هذا المكان لغيرك

قال باسمًا:
-لا تقلق، عظامي حذرتني قبلك

استند على الجندي في صمت مكتفيًا بنظراته التي تصل لمبتغاه في قلوب الحرس، سهام الخوف لم تخطئ أبدًا

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

خرج صديقنا عاصم ذلك السجين الذي نزع هذا اللقب البغيض بمجرد أن صافحتا وجنتاه وجبهته هواء الشارع، بل تهيأت نفسه للحرية عنما تسلل النور لمحاجر عينه بعد فترة لم يستطع عدها، وكأنها مرت كأدهر، سار ناحية سيارته المعبأة بالغبار التي ترقد بجوار القسم، دخلها مسرعًا ثم قبض على المقود متأملًا؛ يرى مشاهد تنبثق وتتجدد كاملة كما الأمس، لا شيء تبدل من مكانه حتى الحجر وصفوف السيارات إلا شيئًا واحدًا، هي نفسه

أمسك الهاتف الموضوع على الكرسي باعثًا رسالة صوتية بصوت خافت: حصلت على سم الأفعى من دارها يا رائد

لم يمكث إلا دقيقة حتى ارتعش هاتفه فإذ بها رسالة جعلت عاصم يبتسم ويقول: ها نحن نكمل.

وصل عاصم بعدها بساعة، يضع نظارة سوداء يخفي فيها عينه المؤرقتين، ويداري بها نظرات الشكوك والريبة

اقترب من مكتب المدير ثم جلس على أريكة موضوعة أمام السكرتيرة المنهمكة في العمل، وضع قدمه على قدمه الأخرى وأخذ يهزها ويصفر، قليلًا وقد نظرت إليه قائلة باستحياء: عذرًا أيها السيد؛ لم أنتبه لوجودك

ابتسم وهو يعبث بلحيته قائلًا: لا عليكِ، لعله محظوظ

السكرتيرة: من؟

مال في هيام قائلًا: من شغل عقلك، أيضير النجوم عبث الأديم

أطرقت رأسها في خجل وقالت: تفضل سيدي، المدير ينتظرك

اعتدل في قامته ثم دخل وأغلق الباب، ضحك المدير مرحبًا وهو يقول: "كفارة يا راجل"، أنت أسطوري

أجلس عاصم ثم أعطاه مشروبًا أعده مسبقًا قائلًا في حيرة: كيف نجوت بهذه السهولة؟ أقصد بدون أن تفقد عقلك كمجاذيب السيدة نفيسة

أمسك عاصم سيجارته عابثًا وهو يقول: كانت والدتي تقول" كثرة الحديث مفسدة في جميع الأحوال"

فطن مقصده فسكت لبرهة ثم سأل: لماذا تصنع كل هذا؟

قال بمكر: سل نفسك لماذا قتلتها؟!

رائد: من تقصد؟

عاصم: أهناك غير رشا، أظننت أنني كبش الفداء المقدم من السماء لترضية ضميرك إذن؟

بدا التوتر على وجه المدير وأخذ يزداد فأمسك منديلًا يجفف عرقه متلجلجًا، فأردف عاصم: لا ترتجف هكذا، لم آت هنا لكي نتحاسب في هذه الأوراق القديمة، ولا يهمني ما دوافعك حتى تلقها من الشرفة

تنهد قائلًا: كان من المفترض أن أقدم لك جائزة على ما فعلت

قال المدير ضاحكًا: أجل، ولكن لماذا، لأنها فرصة لتصنع منها روايتك الجديدة؟

قاطعه عاصم مقطبًا: الورق سيصلك خلال يومين، ومن هنا يبتدئ عملك الدعائي لهذه الرواية

المدير: قد تغيرت كثيرًا

أمسك عاصم ورقة مليئة بما خط فيها من حبر قائلًا: وهذه أيضًا تغيرت، فدعك من هذه الأقاويل المحفوظة

هم بالمغادرة فلحقه المدير بقوله: ألا تخشى من التفاف حبل المشنقة حولك من كتابك هذا؟، يشبه وثائق الاعتراف

قال باسمًا: ألهذه الدرجة أنساك عاصم الآلة القاتلة باحتراف، يلقي القنبلة ويقف أمامها يرى تأثيرها عن عاصم المؤلف الوديع الذي أقحمته هذا الباب وأثقلت عليه حتى صار هكذا؟

ربت المدير على كتفه قائلًا في لطف: الظاهر أنك تريد أن تبوح بما في داخلك أنا في انتظارك إن أردت

نزع يده قائلًا في برود: لا، لا أريد أن أخسرك الآن على الأقل، لست غادرًا مثلك أيها الوغد

سرت رعدة في جسد المدير فضربه عاصم على كتفه بود ثم مضى وفتح الباب، تسمر قليلًا لما رأى السكرتيرة تنظر إليه بود مصطنع لكنها كانت في كيانه إحياءً لشعور قد مات داخله منذ وقت طويل، لاحظ المدير وقوفه فقال: ما بك يا عاصم؟

تمتم قائلًا: رواية جديدة يا رفيق

تتبع رائد بعينيه خطوات عاصم الخفيفة المتعرجة حتى اختفى، يفور عقله من فرط ما به من أسئلة محيرة، لاحظ نظرات السكرتيرة الخاطفة على وجهه فاستدار مغلقًا الباب عليه مرتميًا على الأريكة التي أمام المكتب، أمسك جهاز التحكم الخاص بالسماعة التي صدحت بموسيقى هادئة جعلته في حالة استرخاء لطوفان الذكريات، ألقى نظرة ناحية الشرفة سارحًا في مشهد الغروب ثم تمتم: خسرت كثيرًا بعدكِ يا فتاة

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

أواخر سبتمبر عام ألفين وسبعة عشر

الجو كما جرت العادة في هذا المكان؛ ترى خارجًا شجرة كثيفة تسقط أوراقها على شرفات المبنى كلما غازلتها الرياح بهبوبها، أما في الداخل ستجد صفًا من المكاتب والأجهزة متراصة بعناية والبشر كذلك؛ يسيرون على درب الآلة تاركين أحلامهم لهوام النسيان وأغبرة الزمن، أما ما يعتريهم من مشاعر أيًا كانت من التصنيف يتركونها خارج المبنى خوفًا من أن تكون سببًا لطرد أو خصم من مرتب تقنع رداء الزهد، إن صرخت فيهم وأعملت بهم سيوف اللوم وأسمعتهم من الكلام أشده عن الكرامة وشعارات حقوق الموظف ستجد آلاف الأجوبة تطل من أعينهم البائسة تشكل كل نظرة مشهدًا من سيرتها الأليمة من رحا لقمة العيش التي فتت كياناتهم قبل ازدهارها.

وعلى أحد الجوانب تجلس السكرتيرة "رشا" تعبث بمبرد أظافرها الطويلة، ومن ثم ترى وجهها القمحاوي مع الشعر الأسود المموج تتأمل خديها الممتلئتين بحسرة؛ كانت تتمنى أن تنال زوجًا بعد أن صارت أمام باب الثلاثين من العمر، تغلق المرآة وهي تتشدق هامسة: ما لي متعجلة على الزواج، أمن وسامتهم؟

يقاطعها صوت جرس يتبعه صوت ينبعث من خلال الجهاز يصيح: اتركي ما في يدك وتعالِ إليّ لأمر هام

تقوم مفزوعة ناحية الباب تخشى التعثر والوقوع حتى تصل إلى الباب وتفتحه وهي تلهث، يضحك المدير وهو ينظر إلى بعض الأوراق قائلًا: تعجبني هذه الفزعة كل يوم، شعلة لا تنطفئ

ابتسمت ثم مسحت عرق جبينها قائلة: طلباتك سيد رائد، أكنت تريدني لأمر عاجل أم تريد إشباع حظك من السخرية؟!

نظر إليها شاخصًا بصره إلى عينيها البنيتين ثم تمتم في هيام: ظاهرها السخرية

قطبت حاجبها تلوك الدهشة بين فمها؛ تتعجب من مقلتيه الهائمتين وهذه البسمة العاشقة التي حلت محل وجهه الكاشر يصحبه احمرار وجهه الممتلئ من فرط الغيظ والحنق كلما رأته، تتزاحم الأسئلة في بالها سريعًا سرعان ما انفضت وهو يقرع المكتب باديًا على وجهه الخجل، مبدلًا ملامحه قائلًا:
-احم... على كل، كيف حال الموظف الجديد

-أي موظف تقصد؟

-هل هناك غيره، هذا الذي يدعى "عاصم العمري" أتى لتوه اليوم

ضربت رأسها صائحة: آه ذلك الشاب النحيل، جالس في مكتبه كالبقية

-أحضريه إلى هنا ليأخذ نصيبه

تنهدت بيأس ثم قالت:
-رفقًا بهم سيدي رائد، لعلك تدري كم يعانون ويتكبدون

ضحك رائد ثم قال:
-أيعملون بالسخرة أم بالحديد والكرابيج؟ كل شيء له حسابه
-ولكنك تعصرهم وتجهدهم من اليوم الأول، تقنعهم أننا الشعلة التي تأكل من نفسها لتنير ظلام الجهل ثم تصفعهم بصدمة الحقيقة بهذه القسوة

-دار النشر هنا تحتاج هؤلاء المبدعين ليساعدوا غيرهم، ألسنا خلقنا للمساعدة وحمل الضعيف على أكفنا نرفعه

تراجع بكرسيه ثم استطرد:
-أما هذه القسوة حتى أضمن بقائهم، وحتى أساعدهم أيضًا؛ سيرون كل شيء هين بعد ذلك، بقول مقتضب أنا أعفيهم من التنقلات الوظيفية المتعبة

سكتت رشا لم تستطع أن تباريه؛ يستطيع رائد أن يهزم أي شخص تحت يده بالكلام المعسول حتى وإن كان يسومه سوء العذاب، أشار إليها بالخروج فخرجت ناحية مكتب عمار تطرق الأرض طرقًا بحذائها ذا الكعب العالي ثم صاحت بلهجة رسمية: أستاذ عاصم، تفضل المدير يريدك

قام مرتبكًا يفرك عينه قائلًا:
-يريدني؟ أنا؟
-نعم يريد الترحيب بك، ويطلعك على بعض المهام لتقوم عليها

سار معها يفرك في شعره متوترًا ترتعد فرائصه تشيعه نظرات زملائه السابقين أصحاب الخبرة والمعاناة الأوائل، نظرات ترحيبية بنموذج سوف يصهر كما صهروا من نيران العذاب واليأس

وصل إلى المكتب تنفتح شفتاه بابتسامة خجولة فأومأ رائد برأسه في جمود وأشار إليه بالجلوس ثم قال:
- مرحبًا بك أستاذ عاصم، يسرنا وجودك هنا

قال عاصم وهو ينظر على الأرض:
-أشكرك سيدي

-نحن ننتقي هنا أصحاب الأقلام الرائعة، هنا محمية لأرباب اللمسات اللغوية الساحرة

تهللت أسارير عاصم ثم قال:
-هذا شرف عظيم سيدي

-سمعت عنك بعض الأخبار الطيبة، ولكن التجربة تغني عن السماع

انتبه عاصم وتغيرت ملامحه فأحس رائد بنجاح الحيلة فقال ملاطفًا:
- تجربة ليست صعبة، لعبة سهلة

أخرج من درج مكتبه ملفًا أزرق اللون ثم لوح به قائلًا:
-هذه هي، ألق نظرة

فتح عاصم الملف يقلبه فباغته رائد:
-أرأيت؟! مليئة بالأغلاط ومفتقرة للجماليات رغم جودة الفكرة
مط شفتيه وقال:
-هكذا هم ضعفاء الموهبة

أومأ عاصم بابتسامة بلهاء ثم قال:
- وما المطلوب مني إذن
-كما يفعل الفنان بالقطعة الأثرية

قطب عاصم حاجبيه وقد تبدلت قسمات وجهه؛ تذكر عمله السابق وما يصنعه صاحب العمل من تعسف وتضييق لأجل ما يبتغي هو ومن يغدق عليه المال، صاح غاضبًا: لعلك تدري لماذا تركت عملي السابق

قام يريد الخروج فأوقفته رشا قائلة بلطف:
-لا تكون الأمور بهذه العصبية أستاذ عاصم

-أجل يا بني، نحن نريد مصلحتك

قال عاصم في حدة:
-وأي مصلحة في بذل الجهد ودفع ما أستحق لغيري؟!

قال رائد بهدوء: هب إنك تريد كتابة شيء لك، كيف ستنشره بدون مال، وهل سيلقي رواجًا بين الناس إن نشرته؟ خسارة فادحة نحن نبعدك عنها، ولي عندك مفاجأة تخصك أنت بالتحديد

-وأي مفاجئة تعدل هذه المفاجأة السخيفة

لوح رائد بالملف قائلًا: إن نظرت هنا ستجد أن من كتب هذا يستطيع أن يحقق لك ما تتمناه إن نفذت هذه المهمة

قال ساخرًا:
-ومن يكون؟!

- أما سمعت عن "مؤنس المهدي" رجل الأعمال المعروف؟ سيسعد جدًا إن صححت أخطاء ابنته

لم يمهل عاصم أن يتحدث فأعطاه الملف قائلًا:
-أمامك أسبوع أو عشرة ايام على الأكثر، أثق أن قلمك سيصنعها بأقل من هذا

هم بأن يقول شيئًا فأسكته المدير بإشارة يده ثم استطرد:
-وإن احتجت شيئًا فالآنسة رشا معك، أنرتنا

فطن أن لا مناص أمامه من القبول، التقط الأوراق ثم تكلف ابتسامة واهنة وهو يمر إلى الخارج، أدرك نظرات الحزن التي تحيط بزملائه المشفقين على حاله؛ تذكرهم ابتسامته المرحة بأحلامهم الوردية وهي تتقفز مرحًا، وبعد ذلك يرون وجومه وانحناءة ظهره إحياءً لما اختنقت طموحاتهم حتى تهشمت كالتفاف الحية لتتغذى عليها بعد بث سموم تنشر في القلب انتشاء السكارى، أو هي على أدق وصف نظرات ترحيبية بأخيهم الجديد في اليأس والاستسلام

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

السادس من أكتوبر عام ألفين وسبعة عشر

المذياع لا يهدأ من أول الصباح حتى مقدم الليل؛ يصدح بأغانٍ وطنية تلهب حماس الجموع، تحيي ذكرى الحرب والانتصار، يتخلل ذلك بعض الحوارات بين مذيع ربما ابتسامته السخيفة تظهر بين طيات كلماته وهو يقطع حديثًا شيقًا عن بطولات هذا وانجاز ذاك، بينما عاصم في شغل عنه لا يلقى على مسامعه إلا همهمات، وبعد قليل توقف عاصم عن الكتابة متأففًا وعلى وجهه الغضب، ألقى الكراسة جانبًا ثم غمغم:
- ما أسخف هذه الكلمات، كيف سينبهر القارئ بما أكتب إن كانت تشبه الحجارة الصلدة فلا يصل إلى عقل القارئ ما أرنو إليه؟!

سكت لبرهة ثم قال:
-بل كيف أستطيع أنا معرفة ما يقصد قلمي أولًا؟

ابتسم ثم أردف ساخرًا:
-يا لي من مغفل؛ كل هؤلاء ينشر لهم ويشار لهم بالبنان أنهم هم الأدباء الأقوياء، بينما ما بداخل أعمالهم يستحق أن يكون وقودًا لمدفأة في قصر فاخر بدلًا من الحطب الجاف، لكنهم أذكياء استطاعوا بدهاء الثعلب أن يجلبوا الأتباع بدنو بسيط من أذواقهم المتردية، فيرفعونهم لعنان السماء

سكت قليلًا ثم قال:
-ما لك يا هذا؟! أنت تشارك في رفع هؤلاء بيديك

كان ذلك دأبه وعادته وقتما ناوله رائد ذلك الملف، يقضي يومه بين قراءة ينقب فيه الورق ويتفحص الكلمة تلو الكلمة؛ يبتغي لذلك أن يفهم هذه الفكرة، ومن ثم يستطيع أن يكتب ويرتب

ويعيد نظمها من جديد، وبين سباب وغيظ على أمثال من يكتب لها ويحوزون الألقاب والتكريم ونيل الرفعة وندم على ما يصنع ناسجًا الحجج المعتادة، زفر وهو يزيح هذه الأوراق بعيدًا قائلًا: فكرة معقدة تستحق، ليتها ألقيت على خاطري عوضًا عن هذه الفتاة

أردف قائلًا:
-سبحان موزع الأرزاق

صمت يقلب هذه الفكرة سريعًا، يحاول شحذ عقله عن خيط يبدأ منه ولكن دون جدوى، يحاول مرة تلو مرة فيستعصي عليه حتى هوت مطارق الجهد على رأسه، دفن رأسه بين كفيه معلنًا انهزامه، جاهد نفسه ليقوم ثم قال يائسًا:
- أ لأول مرة أخفق هكذا؟! أتكون المرة الأولى عثرة مؤلمة؟

صمت قليلًا يختار لعقله من حلي الحجج يضعها لعقله فتنسيه إخفاقه فقال: لعلها فكرة لم أشعر بها، كيف ينثر المرء شيء لم يغمس فيه قط، أو لم يجد بواعثه تستفز قلبه فيبوح به

أزاح الأوراق بعيدًا مللًا وتأففًا، أخطأت يده فوقع من المكتب علبة خشبية قديمة، أفرغت ما في جوفها عن كومة صور، خبط عاصم على فخذيه بضيق: هذه ما تنقصني

قام وأخذ يرتب الصور عشوائيًا كورقة "الكوتشينة" ثم تفحص العلبة بنظرات سعاتي قديم يعرف عيوب الساعة من أول نظرة ثم تمتم قائلًا: تحتاج وقت طويل

وضعها كما هي عليه سابقًا كدأبه وعادته، تظنه كسل ولكنه الخوف الذي سار على دربه منذ وقت طويل، شيء داخله دفعه لإخراج شيئًا من الدرج أمامه، ولا يملك في دنياه غير اتباع نديمه ومؤنسه يسير بين أكنافهم ليصل لما يريد، بينما في هذه الليالي الهادئة تتشجع نفسه الخائفة من الصخب والعجيج رغم إدراكها الدنيا عليه، لكن كما يقولون النفس تميل للأضداد.

أمسك بزجاجة عطرية ثم رش منها على وجهه، أتعبت عيناه الضعيفتين وصار يسعل مليًا ثم هدأ وطفق ينظم أنفاسه بهدوء ناظرًا للفراغ قائلًا:
-آه يا أمي، قستكِ الجنة على زيارتي

آتاه صوت من بعيد يقول برقة:
-معاذ الله يا ولدي، كل شيء بميعاد

-أنا ضائع

-قل بربك ما بك، لا تفسد النعيم ببث القلق

قال ساخرًا:
-جيد أن الموت لم يغير طريقتك

-ماذا تقصد؟!

-أنتِ في دار الحق، ألا تنجلي الأشياء وتنكشف حقيقتها

بدا على الصوت الاضطراب قائلًا:
- كن...كنت أسعى لراحتك، فلا تجحد معروفي

-أفقدتني الحرمان وأنا في أشد الحاجة إليه، تلقي الحجارة عليّ وأنا أتشبث بيدي كي لا أهوى وتقولين راحة

-ما حدث قد حدث وانتهى، ملثما تركتك تنشغل بالأشياء القديمة

قام ضاربًا المكتب بقبضته وصرخ:
- أنتِ السبب فيما أنا فيه الآن، الأيام ليست بلطفك وودك الهادئ، كل شيء لا يصبح على أكمل وجه إن نمنا مبكرًا، الدروب ليست مذللة كما تصنعين، أنا أصبحت طلل إنسان ينتظر الموت

نظر إلى الأوراق المتكومة فاتسعت ابتسامته؛ يبدو أن أحد الأفكار قد طابت واستوت في عقله ثم قال:
- لعل البائس قد وجد طريقه

..*.*.*.*.*.*.*.*

أوائل نوفمبر عام 2017

"ما سبب الزيارة سيدي، أوجدتم دليلًا جديدًا؟"

قالها رائد للمحقق "عمار" المسؤول عن قضية رشا؛ كانت ضربات قلبه تكاد ترن الغرفة من شدتها وقوتها رغم جسده الممتلئ، أمسك منديلًا يجفف عرقًا بين ثنايا وجهه البدين فقال المحقق: أعرف أن مجيئي بفرقة التحقيق يقلقك ويصيبك في بعض الأحيان بأزمة قلبية؛ فأتيتك مباغتة

قال رائد بصوت مبحوح:
-عساه خيرًا سيدي

- لا تقلق، مجرد شيء بسيط

أشار إليه بالجلوس فجلس ثم استطرد:
-الشاب المختل الذي اعترف بأنه قتل رشا قد صار بريئًا
- وما يعنيني أنا في ذلك؟ العدالة عمياء لا تعرف الحيل

ابتسم المحقق ثم أخرج ظرفان من جيبه وضعهما على المكتب ثم قائلًا:
- هذه الأشياء تخصك

أصيب رائد بالدهشة، فقال المحقق:
- اضطررنا أن نفتش شقتها فوجدنا هذه الرسائل

هب رائد ملتقطًا إياها ثم قال في جدية:
-هذه أشياء شخصية
-أليست العدالة عمياء؟

زفر ثم أردف:
- وقد رأينا أنها ماتت منتحرة وانتهى الأمر، لا يوجد أي إدانة

قال رائد متأثرًا:
-لعلها تشعر بما أنا فيه

قال المحقق ملاطفًا:
-هون عليك؛ يبدو علاقة قديمة ولم يكتب لها الاستمرار
-ولكن آثارها مؤلمة

قام المحقق مربتًا على كتفه ثم قال:
-أعتذر إليك، جئت فقط لأعطيك هذه الأشياء

تركه مودعًا ثم أغلق خلفه الباب، تركه لغول البكاء والألم تنبعث من الرسائل تلهب جسده؛ رائحتها كالزجاج المتناثر يفتح جروحًا تضيف وجعًا إلى أوجاعه، تمالك نفسه ممسكًا الرسالة يقرأ ما فيها؛ يريد أن يجعل كل كلمة مكتوبة مئات من اللعنات والويل تصب فوق رأس قاتلها، يريد أن ينشرح صدره بالانتقام من نفسه ولو حتى بصراخات تدوي في أعماقه

..*.*.*.*.*.*

إليكِ يا من خطفت راحتي وسلبت الكلمات مني، لا تردين جياد جرأة أقبلت بعد دهر؛ فيا ليت شعري هل تمحى هذه الطبقات القميئة بيني وبينكِ أم تبدلت وصرتِ سيدتي تملكين أقطار الفؤاد، وبت كالعبد الطيع يخشى العتق والحرية؛ فلا يدري ما هي الحياة بدون عطر سيدته

أغلق رائد الرسالة وهو ينظر إلى الفراغ، تتزين عيناه بلآلئ الدموع رثاءً على ما كان في قلبه من رقة، يستعيد شعوره الأول عند كتابة هذه الكلمات؛ يستعيد حنين الأطفال وطموحهم النقي يدفعه اندفاع الشبيبة مع حكمة وأدب الشيب، دفعته هذه البواعث إلى التبسم سخرية على ما كان وما قد صار بعد ذلك، التقط الرسالة الثانية سريعًا وقسماته تتبدل إلى الغيظ والمرار وهو يفتحها ازداد اشمئزازها وهو يتفحص كلماتها كأنها المرة الأولى

"سيدي الأستاذ رائد، أقدر ما تقوله من كلمات رقيقة عذبة، لكنني لا أجد له في قلبي ما يجعله يغدو خفاقًا فرحًا بما قرأ؛ لا أعتقد أن هذه الفروق كما تزعم كلماتك أنها ستتلاشى وتختفي بأمر منا، هي أشياء مدت جذورها الواثقة في مروج عقولنا، حتى وإن تظاهرنا بأنها غير موجودة فأنا لا أتحمل ولا أطيق أن تنزع أغشية الحب إذا وجدت الاستقرار في عيني؛ ارفق بنفسك سيدي فنحن لا نتحمل حيواتنا ولا ينقصنا أن يرتشف كلانا من حياة الأخر رشفة والسلام ختام"

احمر وجهه يزداد غليان صدره، أزاحها بعيدًا عنه ثم أخرج سيجارة من النوع الفاخر يشعلها ينفث فيها غيظه وهو يتمتم:
-حمقاء تستحق الموت
أزاح الأوراق من يده وقال:
- من يرفض هذه النعمة بالحجج الفلسفية هذه يستحق أن يدفن حيًا

قام ناحية النافذة يحرك ستارها ليرى أمامه الشارع المزدحم في مشهد اعتاد رؤيته ليلًا، أطال الشرود أمام هذا المشهد حتى أفاقته صورتها قد اقتحمت نواظره فهمس:
- آه لو تعلمين كم سحرني جمالكِ الفتان كما علمتِ غيظي بعد هذه الرسالة المشؤومة

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

التاسع من أكتوبر عام 2017 (قبل الجريمة بيوم)

"تحت أمرك يا عاصم، أتريد كوبًا من الشاي أو القهوة كالعادة؟"

كانت هذه الكلمات اعتاد عليها العم يونس الذي بلغ الخمسين من العمر، جملة لا يتغير فيها شيء تقريبًا؛ بسمة تكشف تجاعيد وجهه المائل للسمرة ورفعة حاجبه الرفيع الذي يختلط بها الشيب والسواد كأنهما يتعانقان، حتى حركة يده التي تحسس بها رأسه الصلعاء، يغير فقط الأسماء مع إضافات بسيطة لو كان الشخص مهمًا أو له حظوة عند السيد المدير وهكذا، مكث عاصم يحدق فيه متجاهلًا ما قال وهو يعبث بظرف في يده غارقًا في خوفه وتردده، مكث في ذلك قرابة الخمسة دقائق والعم يحاول الصبر وكتم الغيظ من وقوفه فقال برفق:
- عاصم، ورائي عمل كثير في المطبخ لم ينجز بعد، لا يرضيك أن ترى عمك العجوز أن يسمع كلامًا لا يليق من امرأة متحذلقة يعشقها المدير ويلبي ما تريد

صمت قليلًا ثم تمتم:
- رجال آخر زمن، ريقهم يتدلى إلى أقدامهم عند رؤيتهم لخلخال

تحفز عاصم وكأنه وجد طوق النجاة فقال:
-على رأيك يا عم

ثم مال بقربه هامسًا:
-ألا تتصور أنه جعلني مرسالًا للغراميات

-وكيف ذا؟!

لوح بالظرف قائلًا:
-أعطاني هذا الشيء وهو يقول بصوتٍ ناعم أن أعطه لرشا

-هه! أهذا البدين يعرف الخجل؟

-ليس جديدًا على الحب صنع المعجزات

أومأ العم موافقًا فأردف عاصم:
- اصنع فيَ معروفًا وضعه في مكتبها بلطف
- لعن الله نباهتك! أتضعني في مرمى النيران؟!

ربت عاصم على كتفه وطمأنه ببعض الكلمات ودس بعض النقود في جيبه، فما كان من العم إلا أن ابتسم وتحسس جيبه بخضوع وارتياح، فانفرجت شفتا عاصم بارتياح لذمته الفضفاضة، همس ملتقطًا الرسالة في رقة:
-ليت هؤلاء يصبحون مثلك

مضى ناحية مكتب رشا ووضع الرسالة بدون أن تشعر به؛ فهي منهمكة في بعض الأعمال على شاشة تشخص بصرها ناحيتها فلم تلاحظه ولم تدرك أن هناك شيئًا قد وضع بجوارها، ورغم ذلك كان الظفر والفوز يعتليان وجهي عاصم والعم مؤنس، كان العم فرحًا بأن مهمته قد أتمها بإنجاز وأنه قد أحل ما ناله من مال وأزاح عنه الشبهة، بينما عاصم كان يمني نفسه قائلًا في شوق:
-خفف أنفاسك المندفعة؛ لم يبق إلا لمسة بسيطة وستكون فصول حياتهم طوع يدك.

وما بين ذلك كان المدير رائد رغم يفترش الأرض يشاهد شعاع ضوء يتسلل على استحياء غرفته، يترك لعقله السارح الشارد رسم ما يهواه قلبه؛ فتجده ينظر للشعاع المتهادي بهيام وشوق وتتسع حدقته لتلتقط ما يتصبر به قلبه الظمآن، وما أن اكتفى يقوم مستندًا على كرسي يرتمي به عندما يعتدل ويشعر أنه في مأمن من السقوط؛ كان لا يخشى على نفسه إلا في هذه الأيام، فهو يريد أن يلتقي بحبيبته ويصارحها دون أن تصيبه ولو بقطرة من شفقة تفسد حياته، يستفزه الشوق ليراقب النافذة من بعيد يراقبها تكتب وتتحرك، ويقول في غيظ:

- آه من هذا الجبن، بيننا جدار ولا أجسر على قول كلمة؟

يلحظ قدوم عاصم مسرعًا ناحية الباب فيسرع بدوره ليجلس في كرسي مكتبه يتظاهر بكتابة شيء، يتجاهل صوت طرقته الأولى والثانية ويحرك لسانه الكسلان في الثالثة قائلًا:
ادخل

يفتح عاصم ويصيح بكلمات تحية مزجت بتملق، تململ رائد قائلًا:
- خلصني يا بني، ماذا تريد؟

- في حقيقة الأمر لا أريد شيئًا، لكنني جئت أقدم لك هدية

تعجب رائد قائلًا:
- ما الحكاية؟ أ...

قاطعه عاصم:
-لا تتعجل واسمعني سيدي

أرهف سمعه فاستطرد عاصم:
- كنت أسمع عنك أنك رجل مرح بشوش تجيد الطرفة والمزاح، بعكس هؤلاء الموظفين أصحاب الوجوه المتجهمة
قلب رائد كفيه متعجبًا ثم قال:
-مساكين أنساهم الركض والسعي الضحك أو لفظوه بين أرجلهم ليكملوا طريقهم المظلم من أوله لآخره

صاح عاصم:
- لله درك يا سيدي، لكن حزنك هو ما يشغلني؛ فالعشق قتال ونحن نخشى على صحتك

-أقد عرفت؟

- أحاول نيل الرضا فالتمس لي عذرًا

قطب حاجبه قائلًا:
- وماذا فعلت؟

-ما عجزت عنه طول هذه الفترة؛ ورقة يجري بها القلم بكلمات الحب والشوق تلقى إليها بدون أن تدري

تلهف رائد لما قيل؛ شعر بنشوة تحمل إليه بشرى ما يبتغي، ولكن أطفئتها التساؤلات والشكوك والظنون حتى أقام اليائس مكانها، عقد كفيه وقال: أخشى أن تعتبرها كهذه الأوراق المهملة

ربت على كتفه قائلًا:
-لا تحمل هم شيئًا، ثق فقط أن الأمور ستسير وفق ما تريد، بضع ساعات وسترى بعينك

- وماذا ستستفيد؟

قال في مكر وهو يغادر:
- وفر هذه الأسئلة واسترخِ؛ ستفهم لاحقًا

..*.*.*.*.*.*.*.*.*

ما رأيك إن عرض عليك عرضًا لا بأس به لتعيش مقاربًا لرفاقك، تتحدث بلغتهم التي قوامها الشراء والقيمة المادية؟ الثمن بسيط، ستدفن بين تلال من المهام والأعمال التي تثقل كهل الحمير، ستفقد نضارة وجهك وتصاب بآلام الظهر والمفاصل وأنت لم تصل إلى الثلاثين بعد، ربما سيترك لك أمورًا تجعلك لا تثور وتسخط أو تتبلد ويقل انتاجك؛ سنترك لك أمور الحب والغيرة والبغض وأنت وشأنك إن تركتها لصالحنا، في كل الحالات نحن سنربح مستغِل أو مستغَل.

كل ذلك تراه جليّا في أعين هؤلاء الموظفين مهما وصلت ابتساماتهم إلى القفا نحو بعضهم البعض، لا تدري أهي شماتة القديم بصدمة الجديد أم سخرية اصطبغت بالمرار رثاءً على المستقبل المرسوم بالورود وهو يتبدد، وبالأخص رشا سكرتيرة المدير منذ تأسيس الدار تقريبًا، مظهرها من بعيد يخلب أنظار الجموع ويزيد نيران الحساد، وبالطبع تترامى الهمسات واللمزات عن علاقتها الغرامية برائد، بينما إن اقتربت منها ستجدها انتحارية من الطراز الفخم؛ لا تعرف الهزل ولا تجد النكتة إلى قلبها الجاف مسلكًا، راهبة تتعبد في محراب لا تفتر عنه ولا تمل، وذلك ما أعجبه فيها من امتثالها العجيب، ولعله ما رغب عاصم في إكمال خطته.

"هل تسمحين لي بكلمة؟!"
تفوه عاصم بها بعد أن طرق خشب المكتب، ففزعت وهمت بأن تصب عليه وصلة من السباب فأسكتها قائلًا بلطف:
- عذرًا، لم أجد غير هذه وسيلة تنتبهين بها
تلون وجهها بالأسى قائلة:
- نحن وقود لكي تعمل المؤسسة
-بل ضحية متعجرف
-ماذا تقصد؟
- أتكتمين السر؟
أومأت برأسها فهمس:
-أرأيتِ الظرف الموضوع بجوار الشاشة؟
أمسكت به قائلة:
- هذا؟! لا تهول الأمر، أظنه جواب توصية أو شيء غير مهم

قال في مكر:
- ورائحة عطركِ المفضل، غير مهم أيضًا
عرف أن ينثر الشكوك داخلها جيدًا؛ فعطرها من النوع النادر صعب التقليد، أسرعت في فتح الجواب وقراءة ما به وفجأة انفجرت ضاحكة بشكل هيستيري، تراجع عاصم خطوتين متوجسًا، لكنها هدأت سريعًا فقال:
- أمجنون هو؟
-لا أصدق أن يكون كاتبها
-لم؟
تراجعت إلى الوراء قائلة:
- كما عرفته يتلذذ بتنفيذ ما يريد، حتى إن كان على طموح مجرد فتاة تستتر بالأوهام الجميلة عن الاستقلالية وهذا العبث
-ستصدينه؟ سيصبح كالذئب الجريح
-علّه سيحترمني بعد كيّ جرحه
ابتسم قائلًا في ارتياح:
- أنا سأريحكِ من عناء الرسالة و...
قاطعته قائلة:
- لا لا... أنا أجيد اللعبِ بالكلمات، سأكلفك بإيصالها يا صانع الفتنة
تعرق وجهه مبتسمًا، ثم استدار هامسًا في غيظ:
- تظن نفسها ماكرة! يا ويلها مني

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

(قبل الجريمة بساعات)
"كيف حال دنياك، أحسبها قد أذاقتك حلوها""
ضحك عاصم لمّا سمع الجملة ذاتِ اللكنة التهكمية، صوت أصبح لازمة في حياته كلما عطف على حارة ملتصقة في ظهر بيته، يظهر له دكانًا بسيطًا يفيض بشتى الأنواع من الأحذية، يتوسط ذلك خزانة بسيطة موضوع بداخلها زجاجات الغراء وصبغات الورنيش مع ماكينة يدوية يضم بها ما تفرق من جلد الحذاء ويتمتم في غيظ:
-سلم يا رب سلم، حتى ما يستر القدم مغشوش
ثم يضعه جانبًا ينتظر صاحبه فيعطيه قدر ثلاث أو أربع جنيهات، فيمسكها ويقبل بها يده ظهرًا وقفا متمتمًا بكلمات الحمد ثم يلقها في الخزانة ويكمل عمله بنفس نبرة الغيظ الجميل على صوت الماكينة ورائحة الغراء الذي يراها عطرًا راقيًا يناهز أفخم عطور باريس، فتجعله في وسط هذا كله حكيم موشى بجبة الوقار إن أراد الترويح عن نفسه وسار ناحية المقهى، ولكنه كان يرى هذا المكان الصغير عالمًا يعيش فيه معظم يومه.
قال الشيخ غاضبًا لما سمع ضحكات ولده:
-عادتك أم ستشتريها يا ابن أمك
-رحمها الله، كانت تراك أميرًا
رفع يديه المغبرتين يقرأ الفاتحة بخشوع ثم ضمها على قلبه وقال:
-لم أجد مثلها قد وضعني بهذه المنزلة

-والناس؟
قال مستنكرًا:
- أمن كثرتهم؟ من يزوروني غيرك؟
ربت عليه قائلًا:
-ومن لي بركة غيرك يا أبا عاصم؟
-يكفيك نفاقًا اليوم، اجلس واحضر السبرتاية، مضى زمن على رؤيتي إياك
ناوله عاصم الأدوات قائلًا:
- لا تؤاخذني فالحق عليك هذه المرة
-كيف يا ولد
-أتترك بيتك وتجلس هنا؟
قطب حاجبيه ثم وضع يده على خده؛ يعلم أنه سيعيد كلامه عن البيت المريح الذي لا يبعد سوى خطوتين، ويذم هذه الحوائط الأربعة ثم يتودد إليه بصحته ويذكره بعمره الذي ناهز السبعين، حاله كحال الشباب؛ يلهثون وراء المادة أينما حلت ثم ما يلبثوا أن يملئون طول الأرض وعرضها بالشكوى من مر الحياة، يسمع أحدهم الذي تنفس على دخان السيجارة المستوردة، يضعها في منفضة جلبها من سيارته قائلًا كلما مر عليه:
- يا لروعة الزمن الجميل، كان بالكم رائق بالطبع يا حاج، فلم يجد غير ضرب الكفوف قائلًا:
ربك يصلح الحال يا ولدي.
أدرك عاصم تململ أبيه فقال:
- دعنا من هذا الحديث إن أزعجك
-لا عليك، ستكبر وتعرف، خبرني عن أحوالك
وضع عاصم يده على خده ثم قال:
- اختلف كل منا في أسلوبه واشتركنا في هذه المهنة
قال الشيخ متعجبًا وهو يصب القهوة:
- كيف يا ولدي؟
عاصم:
- يأتي إليك الحذاء ممزقًا ويخرج من عندك جديدًا، وكذلك الحال عندي، كنت أثور وأغضب نافرًا عنه ولكن...
صمت يعبث بالفنجان ثم أردف:
-هل إن استخدمت شيئًا بريئًا في حيلة شريفة سيصفح الله عني؟
-أتقصد العطر الثمين؟
أومأ برأسه فصاح:
- يا بني لا تدنس نفسك وتدنس ما بقي لي، ما لنا وما لهم، نحن ندعو بأن يضرب ظالمًا بظالم ونخرج منها سالمين
لمعت عيناه ثم قال:
- إن كان، فلنكن نحن أداة يسلطها الله عليهم

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

_العاشر من أكتوبر ٢٠١٧ (يوم الحادثة)
دقات الساعة تشق الصمت الجاثم على المنطقة؛ البندول المهتز يمهد خجل اليوم الجديد، يستعجله الاقتراب مع خيط الفجر الأبيض فيتحرك كما هي سنة الله في كونه لا يبالي بلحظات فرح أو

بلايا، لا يدري بأن رشا تتخذ من هذا اليوم متنفسًا عن سأم الحياة، وما العجب وهذا يوم ميلادها وقد أتمت الثامنة أو التاسعة والعشرين، لا يهمها الإحصاء قد ما يهمها أن تتزود من صفاء اليوم ما يكفيها حتى دوي هذه الدقات مرة أخرى.

وضعت كالعادة سلال الزهور بجوار سريرها، ثم التقطت زهرتين زينت بهما إطار صورة به زوجين على ملامحهما الجدية قليلًا، ابتسمت برضًا قائلة: عيد يمر بغيركما، أتمنى أن تبتهجا لما فيه ابنتكما القوية، عسى اللقاء قريب من يدري

وضعت قبلة في قلب الصورة ثم عادت تنظر إلى هاتفها، وجدت عديدًا من الرسائل تحمل والسب والتهديد، قالت رشا بيأس:
- ألا يمل هذا السخيف؟!
ألقت الهاتف وهمت بأن تخرج الكعكة؛ لا تريد أن يعكر هذا اليوم أي شيء، وفجأة - بينما كانت تضع الشموع- طرق الباب طرقًا عنيفًا، لم يمهلها الطارق أن تصنع أية حركة بل حتى أن تخرج من دائرة الذهول؛ فقد فتح الباب عنوة قائلًا في شراسة:
- عيد ميلاد لا أظنه سعيدًا
شلل أصاب جسدها عندما سمعته، عيناها التصقت باللثام الأسود الذي على وجهه تعجز أن تحركها، لسانها قد تصلب وربط في فكها رغم استجدائها ومحاولاتها، إن أردت الاختصار فهي كالشجرة الجافة تنتظر أن يضربها الفأس، لا فرق بينهما إلا الخوف والندم الذي تبدو حينًا وتمحيها ظل المهاجم في أخرى، انتهز المهاجم ذلك فأخذ يتحرك خطوة خطوة بهدوء حتى كشف وجهه، ثم قال:
- فلتسمحي لي أن نصفي حساباتنا سويًا
ازدادت عيناها اتساعًا، فقال ملاطفًا:
- ما بكِ؟ الأمر بسيط
جذبها من ذراعها بقوة وارتسمت على شفتيه ابتسامة مرتعشة ثم همس:
- سنغير برنامج الحفلة قليلًا، ستتناسب على ما فعلتيه من وقاحة
رفع قصاصة صغيرة أمامها فاربد وجهها أكثر وأصبح شاحبًا؛ طوفان من الذكريات تتدلى أمام عينها بلون وجهه القاني سلمت الراية ودعتها تنال من قلبها المرتجف، تركت أعصابها المشتعلة دون أية حركة وأسدلت جفنيها على عينيها الزائغتين، تركها فارتمت على الأرض كالدمية، انفجر ساخرًا ثم قال:
- يا للسخف! سحنة الموت أتت باكرًا
وما هي إلا ثانية إلا سمع شهقة عنيفة ارتج لها قلبه ثم خيم سكون ثقيل، ذابت القسوة التي تقنعها رائد وجثا على الأرض بجوارها، يده المرتعشة تتحسس نبضها، صعق وابتعد جاحظًا عينه، وتمتم في هلع:
- ماتت؟ كيف؟ أنا فقط... فقط خوفتها
سار ناحيتها وأمسكها يهزها صارخًا:
- كفى مزاحًا، لا تؤذي قلبي لن أمسك بسوء
لا يجد من جفنيها حركة، فصاح باكيًا:
- توقفي عن حيلة التنفس ستختنقين

-أقتلتها؟

يزيد صوت عاصم الذي كان يراقب من بعيد اضطرابه، يتراجع خطوتان للوراء فيرتطم بالحائط، وجهه يزداد اصفرارًا وعينيه تزوغ وتروح تنظر إلى ناحية النافذة، تهرب الكلمات من نصرته في ذلك الموقف فيتلعثم فباغته صاحبه:
- لا بأس لا بأس؛ لم أعرف أنك بهذه الجرأة على فعل ذلك

تعجب الخائف ورفع حاجبه قائلًا:
- ماذا تقصد؟!

- أقصد أنك أنهيت ما أريد، دورك انتهى يا صديقي الممثل البارع، ناولني فقط الرسائل

- أهذا وقت مزاح؟

قال ببرود:
- هدئ من روعك وانصرف، وستعرف في وقتها

صاح منفعلًا:
- أنا لم أذبح دجاجة،
رمقها بأمل أن تدب فيها حركة فعاد إليه بصره خاسرًا، فصرخ:
- هذا إن لم يخفى فحياتي ستنتهي
- وها قد جاء طوق النجاة
- ماذا تعني؟

فرد ذراعيه مبتسمًا:
- سأفديك وأدخل السجن بدلًا منك

سكت لبرهة غير مصدق؛ ظن أن الصدمة قد لعبت برأيه مثله فهزه قائلًا: هذه ليست رسائل غرامية، اعقل الأمر

- أنا من أدرت البداية، أليس لي حق أن أعيش نهاية رسمتها بيدي؟
ثم حملها بيده وحاول التماسك، رآه واقفًا مندهشًا فصاح:
- هيا ساعدني قبل أن ننكشف
أمسكا بها ثم جريا بسرعة ناحية النافذة، وبعزم ما بهما قذفاها إلى الخارج، استترا بجوار النافذة يترقبان وفجأة! سمعا صوت ارتطام عنيف، فرنا إليه عاصم قائلًا:
- تعرف جيدًا الباب الخلفي، امض ولا تلتفت
ما كان لرائد أن يمتثل فناوله الرسالتين وخرج مسرعًا، يسمع صوت البواب يصرخ:
- يا ساتر يا رب، يا ساتر يا رب

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

المنظر خارجًا أصبح ممتلئًا بكل شيء، ممتلئ بأناس أفزعهم الصوت وراعهم فهرعوا ناحيته كما يصنعون في كل مرة، تنبع من رأسها المتهشم ومن بين أطرافها الأربعة خطوطًا اختلفت في سمكها واجتهادها في السريان، ذاب كل هذا ليصنع حلقة دائرية مع الزجاج المتناثر من إثر التفاف الناس ووقوفهم مليًا بلا أي حركة خاشعين مخيمًا عليهم السكوت، ليست صدمة من الحادث ولا حسرة على المتوفاة المعذبة، لكن هيبة صبها الموت عليهم فأنستهم أنفسهم.

بعد ذلك بقليل توارت هذه الهيبة وأحجمت عن قلوبهم، تركت ورائها وخزات من الرهبة وأشياءً أخرى ترفع الإثارة إلى حد جنوني؛ ترى هؤلاء يضحكون ملئ الأفواه يعقبها صرخات وعويل

من نفس الحناجر، تجد من يستفزه الفضول من طلبة الكليات يتفحصون وجهها، يضعون أسبابًا ونتائج بشره بالغ، مساكين؛ يريدون إفراغ ما حفظوه عليها، وأي فرصة تلك؟! زجرهم أحد الرجال ثم وضع عليها بطانية من الصوف وصاح فيهم:
- لننهي ذلك الأمر، أيكم يعرفها؟

جاء صوت من بعيد يصيح:
- ماذا حدث؟
يرد الرجل بجمود:
- يبدو أنها هوت من أعلى البناية
مضى صاحب الصوت مخترقًا الزحام بجسده، أسئلة وهواجس تزيد من دقات قلبه في كل خطوة، يكاد يشعر أن قلبه يدفعه بانقباضاته باتجاهها، لم يهتم كالآخرين بما لطخ حذائه "الكلاسيك" من دماء وظل بصره معلق ناحية الغطاء وهذه اليد المتدلية خارجه، وأعصابه المشدودة دفعته لشد الغطاء بقوة، فتبين وجهها لبرهة ثم صاح باكيًا:
- الأستاذة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف تقدم على هذه الفعلة؟!

قال آخر هازئًا:
- أساتذة من الخارج فقط، والداخل.. هه هو أمامك
لكزه صاحبه قائلًا:
- اتق الله يا هذا، ربها الرحمن أعلم بها
- أنفق علينا سكوتك
قال أحد العجزة:
- ليغفر الله لها ما قدمت
صاح الرجل:
- أ أنتم حمقى؟! نطلب الرحمة وقد يئست منها؟
- نظف نيتك القذرة يا هذا، ربما قد سقطت بدون قصد
ثم تصاعدت الهمهمات، وكان عاصم بين ذلك يتابع أحاديثهم؛ يكتم سخريته من أفاعلهم، تمتم قائلًا:
- كم أشفق عليكِ يا بنيتي؛ لم يذكرونكِ قبل موتكِ ولا بعده
ثم وقف أمام النافذة فسمع صوتًا يصيح:
- انظروا، من هذا؟!
توجهت الرؤوس ناحيته، وفجأة تحول وجهه إلى الصدمة والبكاء وطفق يصرخ:
- هي بريئة مما تقذفون؛ أنا القاتل
انتهز اندهاشهم فصرخ الأخرى:
- أنا الجاني والمجني عليه هنا
بعد ذلك هرع بعضهم ليوثقوه حتى تأتي الشرطة، تعجبوا من ابتسامته الغريبة واستسلامه، زادهم عقلهم شططًا حينما قال لهم:
- كنت سأنزل لكم بنفسي، لا تزعجوا أنفسكم

أراحوا عقولهم ووجهوا أنظارهم ناحية أخينا الذي أطلق أحكامه كالرصاص بينما هو يتحاشاهم بالنظر للأرض، الأبصار تزداد والأنفاس الحارة حوله فتصبب عرق وجهه وقال متحرجًا:
- ليرحمها الله، المناظر خداعة، أما رأيتم صاحبكم قد ظن ظني؟!

****

منتصف أكتوبر عام ألفين وسبعة عشر

"سيدي، السيد مؤنس المهدي اتصل منذ قليل"

ينظر رائد للعم يونس بنظرة خاوية ناعسة؛ أذناه لم تترجم قوله إلا مجرد همسات تخالط صوت ارتطام وشهقة كان قد ارتج منها؛ يحاول فرك عينيه والعبث في فتحة أذنه بأنامله ثم يمضي في طريقه إلى المكتب وجلس دافنًا رأسه بين ذراعيه، اعتبرها العم وخم وكسل رآه كثيرًا على وجهه كل صباح، نسي أو تناسى عينه التي تكاد تنزف من احمرارها أو وجهه المرتجف، وكأنه يقول: "ليس من شأني، أنا مع من يعطيني لقمتي مهما فعل"

صاح العم متعجبًا:

- كان منفعلًا من البداية؛ يتعجل ذلك العدد، قلت له أن هناك ظروف خرجت عن إرادتنا وعاصم....

قاطعه رائد منتبهًا، كأن الحدث يتكرر أمامه:

- عاصم.... رشا.... عيد ميلاد

- يا لذاكرتك سيدي! كان ذكرى ميلادها فعلًا

أطرق رأسه إلى الأرض وقال بحشرجة:

- لعلها مكافئة من ربها

- ممم..أأأ..أتمنى ذلك

-لا أعرف ما دافعه هذا الشقي لقتلها بهذه الطريقة

انتبه قائلًا في وجل:

- ومن أدراك؟

-خلق الله كلهم يسلون فراغهم فيه

فرك يده قائلًا في جهد:

- لكل منا دوافعه

- لكن لا تصل إلى القتل

- ما لا يهتز له جفن عندك، يكن أمرًا بالغ الخطورة عند غيرك

تراجع العم خطوتين للخلف، بعض من بقية لمعة الشر في عينيه الهزيلتين يلوح بسيف الخوف والتسلط، لملم شتات نفسه سريعًا ثم قال:

- هناك أعمال كانت السيدة رشا _رحمها الله_ تديرها ولا تدخر جهدها الثمين في صنعها

- ماذا تريد؟

- لا شيء غير معرفة كيف ستصلح ما فسد

صاح في حده:

- الأمر لا يحير أبله؛ شأن سائر الموظفين، ابحث لي عن بديل فورًا

أومأ برأسه مذعنًا ثم غادر، ترك رائد لرياح الندم والذنب تعبث بعقله الهش، يرغب أن يكون مثلهم يحكي ويصرخ، ولكن ليس كل بلية سيواسونك بل ينصبون لك أعواد المشانق وسياط الإهانات لذنب لا يدري أكان يقترفه أم سيق في حلقته بلا عقل، لبث قليلًا ورفع يده المرتعشة يقرأ الفاتحة على روحها بخجل وقبل أن يتم دلف يونس لاهثًا ثم قال:

- هناك شيء هام
قال رائد في لهفة:

-قل وطمئنا

ناوله ورقة مقطوعة من (قاروصة) سجائر منثورًا عليها حبرًا جافًا، وما أن قرأها شعر بارتياح كأنه استرد عافيته وصح جسده الخامل، مط شفتيه بتعجب الفهمان قائلًا:
- الأمر يسير على ما يرام؟ آه لو تعلم مديرك المغفل عما يسكن آلامه كتلك القصاصة

****

"أتخافين؟"
صاح رائد بسخرية إلى رشا؛ كانت تنتفض صارخة حين انقطعت الكهرباء فجأة، وما زادها قوله إلا هلعًا، وفي ثوانٍ أخرجت هاتفها وأشعلت الكشاف، ورغم ضوئه الواهن لكنها هدأت واستكانت إليه.
وبين ذلك وتلك كان رائد واقفًا على مقربة منها مندهشًا يملئه الاستغراب؛ هذه أول مرة يرى هذه المرأة التي يظنها أقوى منه في أسوأ لحظاتها، تدخل أذناه صوت أنفاسها النهمة للهواء وضربات قلبها كأنها دفوف تضرب، أصابت كيانه بهزة جعلته يترنح، ويحل الأسى محل السخرية متمتمًا:
"ما أقبح الدنيا وهي تهدم الصغير والكبير مما تعودنا!"
كرر رائد سؤاله بنبرة أبوية فزفرت وأخذت تعبث بالقلم ثم قالت:
- من منا لا يخاف؟
- بلى كلنا نفزع، لكن ليس...
قاطعته قائلة:
- نوبة هلع، طبيعي لأمثالي
تنحنح بخجل ثم قال ملاطفًا:
- سيصلحون العطل سريعًا، ما رأيكِ أن أمنحكِ إجازة؛ يومان على الأقل، اطمئني فهي بأجر كامل
قالت في جمود:
- لا....لا داعي، تعودت عليها مع الوحدة والاكتئاب والحسرة على ما ضاع
تحسس رأسه ثم قال بلهفة:
- سأساعدكِ على طردهم من قلبك، هذه حفنة جبانة ستزول
- ماذا تقصد؟!
- ما قصدت غير الخدمة؛ القلوب عند بعضها
قالت في جدية:
- شكرًا سيدي، أعرف ترويضها
صمتت مليًا ثم قالت:
- وإن اشتدت فهي ليست أول مرة، ما لم تقض على مضغتي الضعيفة
تصنع الابتسام وغمغم:
- نحن في الخدمة في وقت
لله ما أصابه من صدمة، تخترق نظراتها قلبه فينقلب الميزان، هي الصفوان الذي هشم كبريائه ودمر طموحه في أن ينال قسطًا من الحب، ونفسه الخاضعة تود أن تسلمها مناصبه وما ملك، فعلام يتصنع العناد والكبر وهي قد فضحته أمام من أفنى ربيع عمره في تجميلها وتنزيهها ولو

بالكذب، فيا لمصيبته أمام نفسه، كيف يداريها؟

"عصر السابع عشر من أكتوبر 2017"

"أتى لك الموت يا تارك الصلاة"
كان ذاك ما صاح به الجندي بصوته الغليظ الذي يدفع السجناء للنظر من بين القضبان الرفيعة الصدئة؛ إذ أن هذا أذان لهم بقدوم ضيف جديد يملأ فراغ أحد الضيوف القدامى الذي رحمهم زائرهم المخلص فتلاشت معاناتهم وتمتع جلدهم الشاحب بالنور وجسدهم الخاوي فرح بحريته وإن كان لا يظهر عليه، يأنس بدموع الأهل وصرخاتهم جواره حتى تستقبله الأرض فتؤويه إلى مصير آخر.
صوت الأقفال والجنازير يحبس أنفاسهم ويزيد من قبضتهم على الحديد يقلب بصره المجهد بين الظلام أو يرهف سمعه لو ضاع بصره، وما هي إلا ثوان حتى سمعوا أزيز الباب يمر ببطء ويلقي الضوء الهزيل لهم ظلال تحيط بشيء تلقي برمال الصحراء من هذه الفتحة، فخفت فضولهم وتحسسوا ندوبهم؛ تمثلت لهم أيامهم الأولى، ورأى كل منهم نفسه مكانه فتعود هذه الجراح المغلقة بالصراخ والإيلام، وما لهم إلا البكاء المكتوم بما بقيت من دموع.

لم يمضِ قليلًا حتى ملوا من عاصم وقذفوه إلى الجندي ثم غادروا وأقفلوا الباب، برم شاربه ثم حمل المشعلة وقال:
-مرحبًا بك في قبرك
نظر إليه عاصم منهكًا فأردف:
-قالوا أنك مللت السجن المركزي، اطمئن، هنا ستتمنى الملل
أمسك وجه عاصم بيديه بقوة فصرخ عاصم وصداه يجلجل الممر فصمته الجندي وهو يقول:
-وفر صمتك لما ستراه
قال عاصم متألمًا:
-وهل ما رأيته هين؟
-ستعرف من زملائك، سترافق أعتى المجرمين والقتلة الذين ليس عليهم حرج
ابتلع عاصم ريقه فاستطرد الجندي ساخرًا:
- ورغم ذلك نصنع بهم معروفًا
انفجر ضاحكًا وهو يقول:
-ندخلهم الجنة على هذا البلاء
ابتسم عاصم نصف ابتسامة فقط فأمسك الجندي به هامسًا:
-يا لك من لعين! أنسيتني واجب الضيافة
صاح بصوت عال:
-اخرجوا السجناء
ومن بين الظلام خرج حرس ينشطون كالجراد بفتح الأبواب، ويسحبونهم إلى الخارج قسرًا ويصنعون منهم صفين بطول ممر مبسوط إلى ساحة صغيرة تتسع للسلم الحديدي الصغير الذي يخترق السقف، وكان الممر يعج بالنساء والرجال وحتى أطفال لم يبلغوا الشباب وكلهم اتفقوا على نفس القسمات؛ باردة شاحبة تترقب، لا تتغير ولا تتبدل كأنها مستهل لما يمضي بعده، ولما انتظم الصف، دفع الجندي عاصم بكفه قائلًا:
_هيا اختر غرفة
أخذ يقلب بصره يمينًا ويسارًا يستند على بعض خيوط النور الواهنة، وجد ضالته في إحدى الزوايا؛ طفل نحيف يبدو عليه أنه في الخامسة عشر، رآه فجأة يبصره بارتياع وقد اتسعت

حدقتاه، فقال ملاطفًا:
- لا تخف، سأكون مؤنسًا لك

قال الجندي بتحدٍ:

-لا أظن أنه سيحتاج لأنسك
رفع مسدسه بسرعة ثم أطلق رصاصة فانحنى الجميع خوفًا وسمع صوت شيخ يصرخ:
-يا خافي الألطاف، نجنا مما نخاف
قال أحد الحرس:
-ارفعوا رؤوسكم، قد أنهى صاحبكم اختياره
رفع عاصم رأسه ففزع وارتد خطوتان؛ وجد صاحبه الذي منى نفسه بالسكن جانبه قد صار ملقى بجانبه خامد الأنفاس وأثر الطلقة تصنع عينًا تنبع منها الدم فتغرق عيناه الجاحظتين، فقال:
-ما ذنبه؟
-أنك صرت مكانه
-أين الرحمة، طفل صغير يا عالم!
رمقته إحدى السجينات وقالت باكية:
-ليتك اخترتني؛ سيعود لأبيه وأمه وبين أحبته، أخرت عني لحظة تمنيتها
ضاق بالجندي زرعًا فصرخ:
-عودوا إلى أماكنكم
ثم قال للحراس:
-احملوه ببطانيته
-خارجًا سيدي؟
-لا، بل أمام الباب، سيأتون لأخذه
قرع الحارس حذائه ممتثلًا للأوامر، الجميع دخل ينكمش في سريره إلا هو؛ لا يشغله إلا ابتسامة الطفل حين تتسع كلما جروه خطوة، وكأنه ينتظر هذه اللحظة مثلما قالوا، أو كما أفهموه، ففهم أن نظرة الارتياع كانت فرحة حتى لو كانت منقوصة بوجوده حيًا، فبات الشوق يفتك به وهو في سكرات الموت للقاء، وقال متعجبًا:
-لا يزال بك حنينًا أن تراهم، كيف وقد صرت وديعة لا هم لهم إلا تشييعها
فيرد على نفسه قائلًا بشفقة:
-عسى مثواك الأخير أن يكون أرحم من هنا

..*.*.*.*.*.*.*.*

أدرك التعساء قدوم الليل والمشاعل تضاء من هذه الظلال، ظلال جبانة تلقي مشاعلها الموقدة ثم تدب بخطوات خفيفة ذات إيقاع مضطرب؛ يرهف لها عاصم ويترك ظنه ليروح باحثًا عن إجابة لما يفعل هؤلاء، ولكنه يخيب كل مرة، لو كان من خيفة هؤلاء المساكين فهم في منعة منه بهذه الأبواب والأسلحة التي تتزين ظلالهم، ولو كانت الرهبة فكل منهم ينال نصيبًا لكن ليس إلى ذاك الأمر الجنوني.
قام عاصم من الأرض ثم وقف ناحية القضبان يتابع حركاتهم وهم يسحبون الجثة سريعًا ويلقونها إلى الأعلى، ثم زفر متمتمًا:
- أتخافون من هذه؟ أم يخفون عن الضوء جريمة سيثأر لها
سمع بعدها رجة حديدية وبعدها خفت صوتهم إلى أن تلاشى وعاد الصمت لموطنه، وبات عاصم

يتذكر قتيليه، شعر أنهما يطبقان عليه ويثقلان صلبه ليجثو مخفيًا وجهه عن رائحتهم التي تبعثها النار المتمايلة، ولكنه ما يلبث أن يقف ويستقيم بنفس عميق ثم يقول:
-ما ذنب النار إن لقمت الحطب؟
رن صدى صوت من بعيد:

-زائرنا الجديد يتفلسف
فيأتي صوت آخر يقول هازئًا:
-دعوه، علها ترحمنا من نزاع الضمير
ثم صمتا فجأة كما تحدثا، ومن ثم يسمع عاصم صوت وقع خفيف يحتك بالأرض وكأنه يدفع الهواء دفعًا كلما خطا، شعر بحسًا آدميًا يزداد دبيبه مداعبة للباب ويزيد عاصم توجسًا من أشباح ذاك القبو، تتعانق أنفاسه بزفرات متحفزة خائفة تكاد تعادل خوفه، لم يتمالك نفسه إلا أن صاح:
-من بالخارج
أتاه صوت أنثوي قائلًا:
-لم يأن الحساب بعد
-من أنتِ
وقفت أمام القضبان فتاة تكشف النار عن شعرها الثائر ووجهها الشاحب ثم تقول:
-تعالَ إلينا، الحفلة لن تبدأ إلا بك
قطب حاجبيه مندهشًا، يترك التعجب ليسرح بينه وبين نفسه، والأسئلة قد ملئت هذه الحجرة وتنقسم نفسه الواحدة لتستوعب هذه الأمزجة وهي تعلو وتتسابق في الظهور رغبة في السيطرة لتحرك هذه القسمات، ولكنها استترت خوفًا من طرقها على الحديد قائلة:
-ما بك؟
ثم نظرت للممر قائلًا:
-أيفزعك هؤلاء؟
-من تقصدين؟
-أصحاب اللفتات السريعة والرصاص
قال وقد سرت في جسده رعدة:
-هؤلاء؟ وحوش تحمل الموت كلما زارتنا
فتحت الباب وهي تضحك فأزادته استغرابًا، أمسكت بيده وجرته للخارج قائلة:
-يبدو أنك حاقد على فريستهم
-لكنه لم يحمل خطيئة
-الانطباع الأول جميل
قاطعها متسائلًا:
-أكان قاتلًا؟
قالت بهدوء:
-لا، مشاغب أراد تطبيق الأفلام على الحقيقة
ابتلع ريقه في صعوبة وقال بصوت متهدج:
-ولماذا قتل؟
-فضحه الكذب فاحتضنت رأسه رصاصة رخيصة
كانت تسير به على طول الممر بثبات، تمضي به وخلفهما السلم الحديدي يختفي بين رقص الجذوات، ثم وقفت تتمطق بشفتيها وأردفت:
-المسكين! أتعبنا بمظلوميته، كل يوم يحدثنا عن أبويه وعن تهميشهما له وعن المأوى الجيد
-هاهنا؟
أومأت برأسها ثم قالت:

-نعم، أما سمعت عن متشردي الشوارع؟
-وما الجيد هنا؟
فتحت بوابة صغيرة وخرج منها بعض الضحكات التي أصابته برهبة، انتفض لها قلبه محتميًا بما لديه من براءة فتسير الخوف ليبدي به مجلجلًا بطول الممر، وإذ بصورة "رشا" الملقاة على الطريق تتمثل أمامه فسدت ذاك الطوفان وهزته بنشوة انقضاء شطرًا مما رغب، بينما هي ترمق اضطرابه كأنها تختبر فيه شيئًا، ولما هدأ ابتسمت بفخر وقالت:
-المتشردون يسهل خدعهم بلقمة، ويكونون عبيدًا لها؛ لذلك يخافون حين يلوح الموت فقط
أومأ عاصم في صمت فأشاحت بيدها تردف:
-يا لي من ثرثارة غبية! الرفاق سيقتلونني
قال عاصم ساخرًا:
-أتخافين الموت؟
دلفت إلى الحفرة وهي تقول
-إن لم يأتِ كما أردت
هز كتفيه ثم مضى كيفما مضت، سلم يشبه الذي في آخر الممر، لكنها توصل لقاعة كبيرة، في كل خطوة كان عاصم منزعجًا كأنه يشعر بأن يد تسد أذنه وصدره يطبق على حلقومه، لم يتحمل فأخذ يسعل بشدة فسمع صوتًا يصيح:
-ضعيف هو الإنسان، ستتعود فيما بعد
تمالك نفسه وهب واقفًا ليجد مائدة مستديرة يجلس فيها أربعة ينظرون إليه، منهم الفتاة التي قادته ويراها تبتسم وتعضد يدها في يد زميلتها، أدار عينيه ليجد وجوهًا باهتة عليها ملامح الصرامة التي لا تفرق بين الشاب والشيخ، وأمامهم كؤوسًا فضية اللون فيرفع حاجبه ويصفر معجبًا، يباغته الرجل النحيف الجالس على رأس المائدة قائلًا:
-لا يجوز لمن أخذناه ضيفًا أن يقف ونحن قعود
تقدم ناحية كرسي وارتمى عليه، فقال بهدوء:
-أصابت "ماريان" في جلبها إياك
داعب الكأس ثم استطرد:
لك حق أن تتعجب عنا وعن حركات العساكر وهذه القاعة الغريبة، بل حتى الولد التافه الذي أراح واستراح
-نادٍ للقتلة هو
-ربما، لكن رئيسه لا يهنأ بزهوة المنصب إلا يوم، وأظنه لا يهنأ به أبدًا
قال متعجبًا:
-سيموت
جحظت عيناه في هلع، ظن أن المشنقة أقرب لما يريد، وأصبحت نفسه اللوامة تندب وتبكيه مقدمًا دون أن تعرف ماذا حدث، فقال جزعًا:
وما أتى بي؟ سأقتلك؟
ضحك الرجل حتى كاد يسقط ثم قال:
-لا، فقط لأنك لست مثلهم فنلت ذاك الشرف
قال صاحبه:
-هنا مثل الخارج، طبقات عليا تحمل العتاة أصحاب العقول التي يعجزون عن فهمها وطبقة سفلى تخطف أصحابها من بين الغرف الصلبة
قال رئيس المائدة:
-ومن عادتهم يفتحون لمنعم بهذه الحرية؛ أن نجلس سويًا، ولذلك يهرعون من بطش أو كيد، مساكين، فقط نود الحديث بسيرنا وحكاياتنا
أطرق رأسه قائلًا:

-قبل أن تموت معنا
قالت ماريان وهي تمسك بيده بنشوة:
-نحن آخر من يتحدث بسيرته، سنستمتع كثيرًا
ابتسم الرجل ثم قال:
-أمامك شهر لكي ينظروا في أمرك، قاتل متواضع ولكنك صاحب صدى جيد
قام واعتمد على الطاولة ثم أخذ نفسًا عميقًا وأغمض جفنه؛ يسترجع بها ذكرى جعلته يتحسس صدره ويقول بصوت مبحوح وعين دامعة:
-آخر الأنفاس موجعة
تنحنح ليطرد هذه المشاعر ثم استطرد:
-سأقول لك مقدمة طريفة عن أنني لم أولد قاتلًا وخضت بلايا ومحن جعلتني هكذا ودفنتني هنا أنتظره، ذاك الذي سيدخلني لبوابة القصاص
قرب الكأس من فمه ليتجرعه ثم مسح قطرات تسيل من ذقنه وقال ببرود:
-غير أنني لست مثلهم؛ أنا لم يزرني الندم قط يا فتى، لا بل أتى إليّ مرة
نظر إلى عاصم بشراسة وقال:
-أقبل ليدفعني لنيل شرف الثأر

(ما بعد الصدمة)
كنت طبيبًا شابًا، محطة الفخر بين عائلتي المتواضعة كعادة تلك البيوت؛ أم تفرح بوليدها إذا التقت بنسوة الحارة ووضعوا التصانيف والمقارنات، وأبي يقوي ظهره بالحديث عني أمام تجار السوق أو مع رواد المقهى، أضيف عليه حديثًا أختي الصغيرة بنت التاسعة وهي تلعب دور الطبيبة مع أطفال الحي، وأراها تقلدني حين أتدرب على شيء ما وتمسك الأوراق تحاول قراءتها بصوت مضحك محبب لنفسي، كل يراني عتبة ترحب به ولا تغدر فيتعثر عنها
سكت ثم نظر للسقف واستطرد:
-لا بأس بهم، بل كنت أقوي نفسي بهذه الكلمات
قال عاصم:
-وماذا حد...
قاطعه الرجل قائلًا:
-عليك أن تصمت
ثم اقترب منه بوجه محتقن يلقي في قلب عاصم الفزع ويغمغم الرجل:
-قبل أن أجعلك جزءًا منها
فطن لمقصده فهز رأسه بقوة وإذ فجأة لان وجهه وعاد لمكانه جالسًا ثم أخذ يحرك الكأس عابثًا وهو يقول متأثرًا:
-في ليلة واحدة يتبخر كل هذا، الإزار الذي تتبختر به يتفكك خيطًا تلو صاحبه، تصبح عريانًا كأبيك الأول، لكنك لا تجد ما يسترك
رمق ماريان ثم أطلق ضحكة قائلًا:
-تخيلي أن المصيبة لا تكمن هنا
نظر للكأس ثم قال بهدوء:
-كانت تكمن في العذاب وهو يسلخ الأمل سلخًا، والأمل يتشبث بأنامله المتكسرة في قلبي
تنهد ثم قال:
-ترك خدوشًا وأوجاعًا لا تندمل، وكل خدش يفوح منها رائحة أنفاسهم المشبعة بالغاز
مط شفتيه ثم نظر للحاضرين بخوف، كأنه يتهيب أن يكمل؛ يخشى أن يجد من هذه المأساة خذلانًا فلا تقترب لقلوبهم، يجد عاصم منه لجلجة وثقلًا ثم ينظر للفتاة ماريان فتومئ إليه كأنها تعرف ما يجول بخاطره، فالقادم يصعب حتى اللسان أن يحكي فيه، التفتا إليه حين سعل ثم قبض يمينه قائلًا:
-كانت هذه الليلة ليس بها أي اختلاف عن أسلافها؛ حياة رتيبة هادئة تتحدى صوت الرصاص والمدافع، بل اعتدت على سمعه كالمذياع وقت الليل الهادئ للأنس ليس إلا، بيد أن ليلتها كانت ليلة صافية يملؤها نعيق الغربان، ارتبت حينها -كنت أعتبرها نذير كارثة- وأنا في المشفى، أطوف بين غرفاتها وأبوابها، أتردد لأفرغ مثانتي من خوفي، يا لتعاسة المرء حين يخاف ولا يدري من مخيفه، لله ما أخوفني من تحليق الموت مرات ومرات كلما تحركت عقرب من ساعة الحائط.
على كل حال أقبل الفجر، وبعده بثلث أو نصف ساعة رآني زميلًا لي كان عائدًا من الصلاة فصاح مبتسمًا:
-فوت الفجر اليوم، ما بك؟
قلت مندهشًا:
-ها؟ أرفع الأذان؟
-لا حول ولا قوة إلا بالله، نوبتك ستنتهي بعد ساعتين فتماسك
-أتمنى أن تنتهي فحسب

قطب حاجبه ثم ابتعد عني، تركني في حيرة؛ كيف خرجت هذه الكلمات من فمي؟ نوبة ككل نوبة يأتي إلينا جرحى وأشلاء ونحن جامدون نحاول فعل أي شيء، فما حال الليلة؟ ما بها تمزق أعصابي دون سبب؟ وبين ذلك أردد كلمات علمتني أمي إياها حتى أهدأ، لم أستطع أن ألبث في مكاني سوى ساعة عاد قلبي فيها لاتزانه، وفجأة سمعنا دوي عنيف، كانت وقتها قد تجاوزنا الرابعة، هرعت كما يهرع البقية ناحية الخارج، صاح أحدنا:

-الله أكبر، القصف بعيد عنا

ثم هدأ الجميع وعادوا إلا صاحبك يراقب هذه الأعمدة الدخانية، دخان خفت سواده سريعًا وحل مكانه عكارة بيضاء ثقيلة تقتحم الأبنية، رأيت نفسي أتذكر ما درست، صار ما أتخوف منه حقيقة يا هذا.

سحبت نفسي من مكاني عنوة إلى الداخل وجريت للداخل صارخًا:

-سارين، غاز سام سيقتلنا جميعًا

ولما صرخت انتقل الهلع للرفاق، كل من تساعده قدمه يحاول ارتداء ما تطوله يديه من واقيات ويلهجون بأي ذكر مناجاة أو يقينًا بنهاية الرحلة.

ولم تمر ساعة إلا وقد بدأت أشرس المعاركة؛ جبل طرفاها على التضاد والتناحر حتى وإن كانت الغلبة لم ولن تكون لنا

مسح دمعتين ثم استطرد:

-في الساعات الأولى خضنا معركة شرسة كانت تتجلى في أعينهم، تراها جلية في تشنج الأعصاب وضيق التنفس، نقاوم انجذابه للهاوية بوسائل بسيطة؛ ماء يرش على جسده، إنعاش قلبي يجعل الرئة كالبالون أو ضغط متواصل على الرئة فتستعيد عافيتها

أخفى وجهه بين كفيه قائلًا: تجد الموت يسحبهم بهدوء تعرفه في العين عندما تنظر، تخادع نفسك وتحاول مرة، ترى النفس قد انقطع فتحاول أخرى، ولا تكاد تسمع أي نبضة سليمة تبني عليها أي أمل، وما يمنعك عن المحاولة اليائسة إلا أنين طفل آخر بجواره، كأنك تسمعه يقول "ليتني مكانك"

وفي أعماق هذه البلوة، وأنا أغرق بين صرخاتهم، أجد عمي من بعيد يركض نحوي ثم يجذبني ويصرخ:

-الحق أبويك، انجدهم

فركضت معه نحوهم، لا أدري كيف تخطيت كل هذه الأجساد لأصل، بل حتى لا أدري كيف اقتنصهم الموت واحد يعقبه آخر

قام وهو ينتفض زافرًا إلى زاوية من زوايا القاعة، ثم أخرج ما في جوفه وعاصم والبقية متسمرين من الاطمئنان عليه، أمسك صدره وطفق يسعل بشدة ثم اعتدل وركن للحائط، خانته قدمه لتدهس القيء الدبق فينظر إليه غير مكترثًا ثم يقول بحشرجة

-نهاية مأساوية، الأب وجدته معصبًا عاري الصدر والأم تحاول اللحاق به، وما لي إلا الإمساك بها وأصرخ بها بأن تبقى، كانت تلبي كل شيء أريده وعصتني في هذه ليأتي زميل يضع فوق رأسها رقمًا، رقم فحسب بلا تمييز ولا تجهيز، فقط يربت على كتفي ويأمر صاحبه بأن يحمل جثتها إلى صف النساء، وأنا، لله دري من شجاعة وأنا واقف كالصخرة أمامهما وهما يحملان ويلقيان على الأرض بإهمال ليروا آخر ينقذ

مضى الناحية الأخرى وقد استطرد:

-معركة ظالمة فرشت ضحاياها المساكين أصحاب الحظ الوافر؛ على الأقل وجدوا نعيمًا يغمر أنينهم، أسمع بكائهم في كل خطوة، أهي مرارة الفقد الحمقاء؟ لا أظن أنني رأيت ذلك؛ لربما رأيت في نفس الصف سبعة من عائلة واحدة يجمعهم اسم الأب بشريط لاصق على الجبهات والصدور، وقد تجدهم يسحبون الأب الذي يجود بأنفاسه.

انمحى كل شيء في دماغي، كله قد توارى أمام صورتها؛ أختي الصغيرة "ياسمين"، أقوم

مفتشًا عنها بين الأعين المسبلة والأجساد الراقدة
تحفز ولمعت عيناه قائلًا:
-وجدتها من بينهم، وجدتها ترتعد وتتشنج، زميلي يقف أمامها واضعًا يده على خده، وما لي إلا أمسكت جسدها وهي تتلوى، وصرخت فيه قائلًا:
-افعل شيئًا، لا تتركها للموت
هز كتفه ووقف كاليائس ثم أشاح بوجهه، وقال:
-ما بيدنا شيء
حاولت تهدئتها بما أستطيع، نفثت بوجهها بآيات الله حتى جف حلقي، جسدي يكاد يسابق قلبي في الانفجار من ألم فرط حركتها، ينظر زميلي إليها فيفلتها مني ويقول:
-أسرع بالإنعاش، أنفاسها تتناقص
طفقت أضغط على صدرها بقوة، نفسها صار نبضة خافتة تظهر في بطنها، صرخت فيه قائلًا:
-انجدها بأي شيء
-والله هذا ما..
قاطعته في حدة:
-لا بد أن تعيش
قلب كفه وحاول أن يساعدني، فعلت ما بوسعي حتى أنني أترجى منها أن تستيقظ، أتوسل له بأن تقوم من بين الموات لتذهب معي، تحيا لطموحها فقط، لأجل أخيها تقوم حتى لو قضينا يومنا نبكي لمن فقدناه، رأيتها تبتسم ناحيتي ثم توقفت الرئة، رقدتها وأخذت أضغط على صدرها مرة تلو مرة، تحسس صاحبي النبض ثم أطرق رأسه وواساني ببعض التربيت على كتفي

جلس على الأرض ثم تنهد قائلًا:
-كأن أحدًا خلع أعصابي من محلها، نظرت إلى حالها، كأن الجنة هبطت على وجهها يا رفاق، عدلت ثيابها ثم وضعتها في صف طويل من أقرانها الذين انتهت معاناتهم، شددت عليها بطانية متكومة فوق جسد أحدهم هامسًا:
-اطمئن، هي صاحبة خفيفة، يكفيها حرف الغطاء
عض شفتيه حتى احتبس بها الدم ثم أردف:
-رأيت واحدًا منهم يختلس النظر ممسكًا هاتفه، يصيح كما نصيح من هول المنظر، ينتهك راحة الموتى ب"كاميرا" هاتفه، وجدته يمسك بالجثث ويمعن في تصويرها تارة عن يمين وشمال، وبغتة رأيته يتابعني وأنا أضع الغطاء فوق البنية، فرمقته وأنا مرتاب من أن يقترب منها، فخاف مني وطاف بغطاء آخر يسحبه ويمسك بجثة يجذبها ويهزها، فصرخت فيه قائلًا:
-ماذا تفعل، حرام

قال بجلف: توثيقًا لما يجري

-ولمن التوثيق إذن؟ لهيئة الأمم؟ أم المحاكم الدولية؟

=للعالم.... ليته يتحرك وتهتز عواطفه
لكزته بغل وأنا أنبهه عما يفعل بأنه لا ينفعهم ولا يشفع لهم ولا يجدي معه، فشددته وجذبته إليّ وصرخت فيه: لا تزعج الموتى وتؤذيهم بالصور، سيلعنونك

تركني واختفى، أظنه صور منطقة أخرى وجذب جثثًا، وجد سبقه الصحفي مع كلمات مؤثرة يفتتحون بها اجتماعاتهم وقممهم، وتجدهم في إحياء الذكرى يتباكون على هذه الأجساد ولا جديد، ويمثل أطفالهم هذه المأساة لهوًا في أمان باسم التضامن، بينما أنا وبعض النساء نحمل ذوينا لهذه

المقابر المزدحمة، الكل يلقي بوليده كما هو ثم يبتعد، صحت فيهم بأن أجد كفنًا لياسمين فناداني شيخ بقوله:
-سم الله وادفن ابنتك، الشهيد لا يغسل
-وأين دمها
طأطأ رأسه ثم أشار بيده لي فوضعتها وقبلت رأسها، ثم وقفت أنظر للتراب وهو يكسوها ويغبر ملابسها إلى أن يخفيها وقد أعلمني صاحبي بأن أبواي سبقاها

ابتسم أمام الجميع ثم احتسى قطرات من الكأس قائلًا:
-ذاك الشطر الأول، انتهى حين عدت لبيتي في ذاك الحي المتهدم الخاوي، خليت بين نفسي والحسرة تفعل بي ما تشاء كالغيث حين يشتد
قال عاصم في نفسه:
- ما أصعبه من لقاء! مشاعر قديمة وواقع مر

مضى من الليل نصفه حين فرغ، علمها عاصم بعد ذلك أنهم بارعون في شطر الليل وتقسيمه للبوح بحكاياتهم، وهنا يختفي معنى الثواني من أنها دقة من ساعة الحائط إلى كلمة أو حركة خاطفة، ويسأل عاصم نفسه عن سر براعتهم، ولعل الإجابة تكفي بالنظر على وجوههم التعسة ودرجاتها في هؤلاء الأربعة، وأعلاهم تعاسة هو من يتشعب شعوره في كل موجود تدركه حواسه.
تقف ماريان مبتسمة بعد صمت ثم تقول:
-بوسعك أن تكمل سيدي، ما زال هناك وقت
أومأ برأسه وقال:
-ذاك النصف خفيف، كهذه الدقائق
-هي الأخيرة
-لكنها تمر كالنسمة يا ماريان
قالت متعجبة:
-وكيف عرفت؟
-شعور من له قدم هنا وأخرى هناك
سكتت ورقدت محلها، بينما عاصم يريد الحديث إلا أن الخوف ألجمه وبات يغلي الكلام فيه، وما لبث أن خفت وخمد حين قال:
- حين أتى الليل فتحت التلفاز، وجدت صورهم وهم يحتضرون، قد انتهكوا ما بقي من أرواحهم بوميض الكاميرا، حتى الهاتف لا يتركني إلا بصورة من هنا أو هناك كسبق على هذه الأجساد ومناظر البراءة، وقفت أمام ساحة البيت تائهًا، وكأنني أرى صورة ياسمين مع أبواي تنتزع بين يدين، يد تخنق ويد تتاجر بموتهم، كارثة أنني كنت لا أدري أيهما أحق بالقصاص، أيهما يدفع ألم ياسمين؟ من قتلهم يملك السماء بحواماته وطائراته ومن تاجر يقع جوارك في نفس الخندق وتأبى أن تقدم عليه فيقال افترق الأبناء.
عبث بردائه وهو يستطرد:
-ما لي عزيز أتحدث إليه لأشكو همي، فالمصيبة ما غادرتهم إلا موتى أو أمثالي راقدون في صراع نفسي، واجتمعنا على أن نفر من كل ذلك، تمنينا أن نخرج من هذا الإطار لنعرف أن نحكم، وقد كان بأي طريقة حدثت وبأي عناء ذقنا.
استند على الطاولة وجعل رأسه تدور على هذه الحيطان، كل نظرة تحمل في أعقابها شعورًا مختلفًا، يدركها الجالسون في لحظة تقلب الشفاه والحاجبين، عاصم كان يحاول إجهاد عقله ليصل إلى ما داخل تعقدات وجهه؛ رغب فحسب أن ينهي هذا التشويق في كل سكتة، لكن ما أراد أن يسكن عقله أزاد طنين رأسه، ولما يئس احتمى بالصمت والنظر إلى أن يفتح الحديث، مكث

طويلًا ينظر ويدق بظفر سبابته على خشب الطاولة، ثم يتنهد قائلًا:
-لبثت مثل هذه اللحظات في أقصى الأرض، صمت كئيب يغرقني بصور أحبابي ونكبتي فيهم، بينما الآخرون يغرقون في متع وملذات الأمن، أذكر أن لي صديق كان يشبهني بعد أن فقد عائلته كلها، تعاهدنا أن نخرج لنميز الحقائق فحسب، ورأيته ذات ليلة يرقص معلنًا زفافه، عاتبته فأخذ يحلف لي أنه لم ينسى ما قلناه، لكن العيال والأشغال والمكان الرحب أفقدوه لذة البحث عما فات، فرقد وأخذ يردد هذه الشعارات الجوفاء بالسلام وأن الدم يجلب الدم، رأيته ضعيفًا كالشيوخ وهم يدارون عجزهم ببعض الألقاب والأقاويل؛ يهادن عدوه مستترًا بالعفو ويصافح غادره لأنه قادر على تحمل طعناته فرأى نفسه قويًا.
ابتسم مستطردًا:
-لكنه كان خدومًا، مطية لطيفة انتقمت منها من أول ضحاياي
تأمل وجوههم المندهشة ثم قال:
-بعدما استقر المقام هناك، عملت بالنهار مجرد محاضر في مؤسسة صغيرة، وبالليل جالس مع ذاك الرفيق في مقهى عربي يجذب فيه المهاجرين، ويجرون وراءهم همومهم وأشواقهم، مزيجًا غريبًا يطرحونه أمام صوت المذياع، تارة يسمعنا صوت نادر لشيوخ تقرأ القرآن وتنثر الآيات كاللؤلؤ في القلوب والأخرى يسمعنا صوت "أم كلثوم" بأغنية واحدة أذكر منها قدر جملة "غلبني الشوق وغلبني" كأنه يرثي حالنا وحاله وقد تغشانا الهم بهذه الأنفاس الباردة الكئيبة، فقط أذكر- في كل رشفة شاي- فتاتي وهي تلهو بالحارات تتغنى بأغانٍ حفظتها، يستفزني الشوق حتى يحرق جرح قلبي فيصرخ بذكراه الأليمة وهي راقدة تنفق أنفاسها الأخير ثم أودعها في التراب، فأحبس دمعة أرادت الخروج ثم أقول من أعماق قلبي
"ما تركناك بملكنا"
امتلئ وجهه غيظًا ثم قال:
-ذات ليلة قطع هذا الجو صوت رجل يرمي السلام فردوا بصوت خافت، غير أن صاحبي قام وقابله بحفاوة مبالغة، تبين أنه قريب له وصل إلى هنا منذ أيام، بعد السلامات والتحية أجلسه على الطاولة بقربه ثم قال:
-والله هذا يوم سعد يا ابن العم، زيارة مفاجئة ينشرح لها القلب
ابتسم وقال:
-تدابير ربك، استطعت إنهاء الإجراءات وما أن لامست عجلات الطائرة أرض البلاد أتيت في خاطري فقلت أراك قبل الانشغال
ربت على كتفه ممتننًا يهمهم ببعض الكلمات ثم سأله باهتمام:
-ماذا تشتغل هنا
-آه يا سادة، من نصيبي مهنة متعبة وشاقة، كما يقولون البحث عن المتاعب
فطنت لعمله فطاش عقلي، رأيته ذاك الذي يستمتع بموت الطفل، لمزته قائلًا:
-متاعب؟ بل هي مهنة دنيئة قذرة
-ماذا تقول؟!
-مثلما سمعت يا هذا، لا تفرقون عن الجراء الجائعة في شيء
غضب الصحفي حتى شرب بياض وجهه حمرة، ظل جالسًا في مكانه يتمتم ساخطًا على ما قيل، ومال صاحبي عليّ هامسًا:
-العيب عليك يا يوسف، هذا ضيفي وإكرام ال..
قاطعته صائحًا بعلو صوتي وأنا أتحسس مدية كانت في جيبي:
- لو كان سكت ولم يحدثنا عن مهنته لسكتنا
استدرت ناحية الصحفي وقلت تاركًا نشوة الانتقام تجتاح جسدي:
-لكن كما تعلمنا أن المجاهرة تحقر المرء لا تعليه
=أمخبول أنت؟ تعلم فن الحديث أولًا قبل إفساد مزاجنا بتنظيراتك

أمسكته وصرخت غاضبًا:
-أعديم المروءة يعلمني كيف أتحدث؟ والله لأقتلنك وأشفي غليلي
انتفض الموجودون واحتشدوا ناحيتنا، لم أدر إلا وقد عاد الهدوء البارد مرة أخرى
قال بلهفة:
-ورأيته -ذاك الوغد- يفترش الأرض وهو يتشنج والدم يسيل من شفتيه ثم جحظت عينه، وجدت لصوت أم كلثوم متعة وقد غلفت بابتسامتها وهي تلهو، يزينه صرخات صاحبي وهو يقول:
-لم يفعل شيئًا
قالت ماريان وقد استفزها التخيل:
-ما ذنبه؟
صاح في حدة:
-وما ذنبي أنا؟ أأفر من أوجاعي هناك فأجدها هنا؟
ثم قال في غيظ:
-كانت مجرد تصبيرة صغيرة، واتضح لي أن كل يد ظالمة والساحة مفتوحة لي كيف شئت
تعجب عاصم وماريان من كلامه فاستطرد:
-قضية سهلة، حتى أنني لم أبت في الحجز، كلهم شهدوا أنني أدافع عن نفسي، حتى صاحبي قد قالها وأنا أراه يتمزق قلبه ألمًا، ولتطمئن الشرطة صليت معهم صلاة الجنازة، والله المطلع على النوايا كنت أتخيل أنها ياسمين فتقر عيني بالدموع لها، ويزداد صاحبي غلًا كلما تساقطت قطرة.

أبصر ضوء المشاعل ثم قال:
-بقي القليل فقط
ثم زفر قائلًا:
-تركت شهوتي تقودني إليهم، صرت أتتبع أخبارهم ومقالاتهم تحت كل صورة، آه لما أصابتني بكائياتهم بالغثيان كل مرة، كأنهم يرثون الذبيحة وهم يعصرون لحمها بين فكيهم، أذكرها حين أقتلهم وأجعلهم صفوفًا كصفوفهم، ذلك فليذوقوه إن اشتهوه
هدأ من غلظة كلامه ثم قال بهدوء:
-غير أنني كنت رحيمًا بهم؛ أعرف ضعفهم، أنتقي لهم ميتة تناسبهم
ضحك ضحكة قوية ثم استطرد:
-كنت مناصرًا للمرأة بعض الشيء، كنت أكتفي بطلقة من مسدس صغير تخترق دماغها وهي في بيتها، وإن كان هناك أطفالًا ألقي بهذه الطلقات في صدورهم وهم نيام
قال عاصم ممازحًا:
-من نعيم الطفولة لنعيم الجنة
-تمامًا، ليت المخابيل يعلمون، لو حاكموا إياي على قسوتي مع الرجال وصعقهم حتى الموت يكن تبريري أنهم خذلوا أختي وأبواي، لو على ترتيبي إياهم بعد الموت فذاك ما عانيناه، فلكل شيء تبرير وحجة
قالت ماريان:
-ولكن حجتك تضعف كلما انطلقت رصاصة
أخرج ورقتان من جيبه ثم قال:
-علّ هذه تشفع لي
فتحت إحداها وقرأتها على الآخرين، وجهها كان يتحول كلما تنقلت من كلمة لأخرى، كأنها تتبدل من مستهجنة لفعله إلى متعاطفة ولو بخيط رفيع
"عزيزتي الحاضرة ياسمين
هذه رسالة أطويها في جيب قميصي القريب من قلبي، ذاك الذي أعطيتنيه هدية في يوم ميلادي، وإنها لعمري هي من تدفعه للخفقان بحرارة أمام ذاك الواقع المستمد من الجو المقبض، لم يترك

حجرًا إلا وأضاف عليه قتامة تزيدني حزنًا، فأحاول طلب الوصل والسلوان منكِ من طيفك، إن كنت لا أستطيع العودة إلى مأواكِ فاعذري أخاكِ واطلبي من أمي وأبي أن يعفوان عني، علّ اللقاء قد اقترب لأسمع صوتكِ الجميل مرة أخرى"
التقطت الرسالة الثانية وهي تبللها من دموعها وقالت وهي تتمالك أعصابها
" وردتي الجميلة، سأكسر قاعدة الوصال بيننا بهذه الرسالة؛ فإنني الليلة أشعر بشيء غريب، لا ...لا ليس بغريب فلولاه ما خطر على بالي أن أتكلم، ملمسه البارد قادني لفك أصفاد الأسى والبلايا، أعرف أنها سيتاجر بها ويتربح على مأساتنا، سيشرب العصائر وزجاجات النبيذ الفاخرة نخب انتصاره، لا أخال أنه سيهمه قلبي الذي انفطر وأضحى رمادًا، لا أظن أنه سيرق قلبه عند انهياري أمام أقدامكِ الباردتين ودموعي التي بللت أجفانك الشاحبة وأنا أغمض عينيكِ، لا أراه مكاني وأنا أهيل على جسدك الصغير التراب دون غسل أو صلاة، واضعًا سعادتي ولهوي جواركِ ينالان من نعيم الروضة الطيبة معكِ، فقررت أن أنتقم لأجلك، تركته وقد غرزت فيه نصلًا يسوقه إلى الموت فتسأليه مع رفاقك كيف كان يشعر حين يقلق راحتكم".
وضعتها ماريان على الطاولة ثم مسحت دموعها وقال يوسف بهدوء:
-مكثت في ذلك ما يزيد عن ثلاثة أعوام، ووقعة المحترف تلقفتني كما تلقفتكم إلى بطن الأرض، ضابط كفؤ ماهر بجمع البيانات اصطادني وأنا أجهز على صحافية قرب وسط البلد
قال ساخرًا:
-العجيب أنني كنت أسير في جنح الليل بسهولة، حتى الفتاة لم يسمع صوتها وهي تصرخ قبل أن يزرع الرصاص في جبهتها، أكانت طعمًا؟
سكت يمسح وجهه ثم استطرد:
-صادفت حين أردت المغادرة ورقة مكتوب فوقها "لماذا تكره أرباب الصحافة؟!"
فجذبت شعرها وتأملت عينها الجاحظة ثم قلت:
صنف بغيض، يبحث عن متاعب الناس ليصورها ويتاجر بها
ثم غادرت، وبعد خطوتين رأيتهم يحيطون بي
أرهف سمعه لصوت خطوات فوقه تقترب فقال:
-كانت حركاتهم كهذه حين أمسكوا بي
قالت ماريان:
-جاءوا مبكرًا
قال عاصم متعجبًا:
-من هم؟
-رسل الموت
ازدرد لعابه في صعوبة وما يلبث أن سحبته إلى الأعلى وتبعها البقية، جلس الثلاثة في حجرة عاصم ينظمون أنفاسهم المتلاحقة، والسيد يوسف واقف في الممر يترقب هذه الظلال، فقال عاصم:
-أيقتلوه؟
أومأت ماريان وقالت:
-في الوقت المحدد
ثم صمتت تسمع خطواتهم الثابتة ولما سمعت رج الحديد وقفت تنظر من القضبان بلهفة، لترى نديمها يقف أمام ثلاثة يشهرون السلاح، فيقول يوسف بهدوء:
-مصرون ألّا أرى الشمس
قال الضابط:
-"وتلك الأيام نداولها بين الناس" أليس ذلك مبدأك
-بلى

قال الضابط:
-ألا تريد شيئًا قبل الموت
هز رأسه نافيًا، لكنها لم تكتمل إلا بأعمدة من لهب تصوب على جسده فتطرحه على الأرض، والجمع قد انصعقوا مما جرى، حتى عاصم بات يكتم صرخة شديدة جعلته يرتج، وماريان تابعته بجمود وهو يخرج بما بقي له من روح هذه الأوراق الغارقة بالدماء ثم يبتسم وترى شفتاه تتحرك بكلمة قبل أن تقبض روحه
"ياسمين"
ولما اطمأن الضباط على موته، أخذوه إلى الخارج مسرعين لدفنه قبل أن ينقض عليهم؛ كأن قلوبهم لا تصدق أن صاحبهم قد صار لا يملك التقاط هذه الأوراق التي سقطت منه، وفي أثناء ذلك وقف الرجل الآخر عابثًا بشعر أبيض من لحيته ثم قال للثلاثة الجالسين والجزع بادٍ عليهم:
-أتمنى أن أصير في قلوبكم مثلما صار
ثم ضحك قائلًا:
-كفاني خداعًا لنفسي، ستسمعون حكايتي ولعلكم لا تجدون فيها أي حسنة أو مظلمة لي
ثم خيم الصمت وعاد كل إلى محبسه وموطن وجعه

..*.*.*.*.*.*.*.*.*

20 أكتوبر 2017 (قبل منتصف الليل بساعة)

بضع طرقات على الباب كفت لأن تفزع رائد وتجعل أنفاسه تتسع، اعتدل ببطء يتأمل المقبض الذي ينثني بهدوء وعقله قد انطلق يجسد أفكاره مثلما اعتاد من هواجسه أن تقلد هذه الأصوات، فارتمى وأغمض عينه ينتظر مصيره الذي ينهيه شبح رشا الثائر أو قدوم عاصم لأخذ روحه ليرد معروفه، خيالات انتظر أيهما يصير حقيقة، وانبرى لسانه الثقيل قائلًا ليبدأ الجو الكئيب:
-ادخل
وما أن سمع صرير الباب مع رنين الحذاء المتصاعد دفعا أعصابه للثوران والارتجاج، تقبض وجهه وأخذ يرتعش وأخذ يقبض على مسنديّ الكرسي بعنف، فأتاه صوت وقور قائلًا:
-يظهر أنك متعب اليوم، صدمة قوية
انتفض رائد وفتح عينيه، فإذ برجل يلعب بحاجبيه السميكين الموشيين بالشيب ويدور بعينيه في أرجاء الغرفة، شهق متفاجئًا بضيفه ثم صاح مندهشًا:
-سيد مؤنس؟ زيارة طيبة
نظر إليه ثم تقدم ناحية المكتب وجلس على الأريكة وهو يزفر قائلًا:
-كما يقولون، لو كان الترحيب في موضع أفضل
أومأ رائد ثم قال في أسى:
-مقدرات نمشي عليها
-على ذلك لا أود أن أقسو عليك في العتاب
-على ماذا؟
رفع حاجبه ثم قال متعجبًا:
-لهذه الدرجة؟
عقد كفيه وهو يفكر ثم رفع رأسه وقال متثاقلًا:

-الرواية؟
أومأ برأسه ثم زفر قائلًا:
-تعلم إلحاح بنت أبيها، تريد أن تفرح بفك...
قاطعه بتحفز:
-أعلم، لكن هي ليست زبونة عادية
مط شفتيه ثم أردف:
-حتى أن فكرتها جميلة وقوية
شعر بغصة شديدة دفعته للصمت، نظر إلى شرفة أمامه وجدت مفتوحة تطل على مكتب السكرتيرة، أمعن بصره في الظلام فوجد شاشة لا تزال صورتها معلقة في إحدى جنباته، صورة مرحة جعلت قلبه يرتجف شوقًا، فيقوم واقفًا، تختفي الابتسامة رويدًا رويدًا، بل تتبدل الصورة لشكل آخر، نفس الملامح والهيكل لكنها انقلبت للضد، ملامح ذكرته بآخر يوم رآها قبل أن يتركها في دولاب من دواليب مشرحة، يقفز إليه أنه سعى كالملدوغ حين كشف العامل عن وجهها، ليس خوفًا من ذنب أو جرم القتل، بل جنون من أن يفقد ما ملكه من بسمتها ودلالتها أمام وجوم وشحوب وجهها، أخفى عينه ثم زفر قائلًا:
-مسألة وقت فقط وسترى رواية فريدة
قال مؤنس في ضيق:
-أنا رجل ينزعج من هذه الكلمات

-أنا مثلك، لكن...
صاح مؤنس:
-مثلي؟ في ماذا؟
قال متداركًا زلته:
-لا شيء
-أكنت تكتبها؟
-وكلت أحد العاملين
تعجب فاستطرد رائد:
-لا تقلق هو كاتب مثل هؤلاء أصحاب الإثارة
-وأين هو؟
-في إجازة مفتوحة؛ منحتها إياه لكيلا ينشغل بغيرها
ابتسم ثم شكره وغادر حينما طمأنه رائد بعدة كلمات، تابعه بعينه إلى أن انزوى داخل ممر السلم وقد ابتلعه الظلام، خانته قدماه وارتمى على الأرض ورأسه تكاد تنفجر من كثرة الأحداث وتعقدها على عقله؛ يمني نفسه بعودة الأمور إلى مللها الطبيعي، ترجع فقط الحركة الديناميكية حتى لو كانت الناس غير الناس، تدور العجلة وإن كانت تفرم ما بقي من أدميته.

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

رغم مرور نفس الدقائق والساعات على قلب عاصم، لكن نفسه لونته بما يليق من سواد وظلام لا يعرف ليله من نهاره إلا بطواف "ماريان" على ذلك الممر؛ رغم أنها لا تفتح الباب له مثل المرة الأولى، سمعها ذات مرة تتمتم بطول الممر باسم "يوسف" الذي حدثهم بما اقترفه، كأنها أحبته حين علمت -أو ما خيل إليها- نبل ما صنع، لم تهتم وتقف عند تفاصيل الوسيلة المتبعة ما دامت تشترك معه فيها وقد صارا أمام الناس قتلة يجري الشيطان في أوردتهم.
وبينما هي تطوف عاصم مكث يراقبها من الباب الحديدي، يراقب في صمت يحشوه همهماتها الرقيقة التي تداعب المشاعل وتتمايل مع زفيرها، مكث على ذلك طويلًا إلى أن قاطعه أحد النزلاء العجزة قائلًا:
-مرحى، أنى لهم الحرية عننا
صاح عاصم:
-يبدو أنك جديد
قال في حدة:
-بل أنا أقدم منكم، أنا من شيد كل شيء
-من أنت إذن
-ويلك، الويل لك حين أراك
تعجب عاصم فكرر سؤاله، فصرخ الرجل:
-غبي، الناس تخشى أن ترى نعلاي يا خبيث
قالت ماريان:
-كلنا سواء هنا، أم تحب أن تعد خطوات موتك معنا
قال في غيظ:
-وهل هذا يختلف عن ذاك، كلاهما موت، كلاهما عذاب يحرق، فما هذا الظلم؟
هزت كتفيها اقتربت من زنزانته قائلة:
-غبي، لا يعرف أننا أخطر على هؤلاء منه ومن صياحه
قال مندهشًا وفي عينيه لهفة:
-كيف ذا

همست قائلة:
-ستعرف الآن
-حكاية أخرى؟
قالت في أسى:
-وموت آخر
ثم فتحت الباب وقادتني إلى نفس الباب المعدني والعجوز يصرخ ويردد
"الويل لكم، أين المفر؟ جهنم ستجمعنا"

دلفا الاثنان نفس الباب، شعر عاصم بضغطة على صدره لكنها خفيفة عن سابقتها، اختفت رهبة الغريب الخائف من صدره وانتقل إلى مفتقد يرى ذكرى حديث ترك إيقاعه السريع أثرًا حينما انتهت مع آخر نفس لصاحبه، فوجد نفسه تشفع ألف شفاعة لماريان على همسها لو التقت عينه بعينها حين يرتد طرفها.
لا تزال رهبة الوجوه وانهمار الأسئلة يسيدان عقله، كان في راحة عميقة تدفعه ملامح الشيخ الجامدة إلى تركيب أسئلة وترتيبها لتمتطي اللسان وتغامر في الحديث لكنها تثبت فيكفيها أن تثقل اللسان، فيبادر الشيخ:
-سيعدمونني في الصباح، وسط الضجيج
قطب عاصم حاجبه فاستطرد:
-يخشون مني، أنا لست كأي سفاح دفعته قوة يده لهذا القبو، اسمعهم وهم ينادونني بالأستاذ، أنا من جعل القتل لعبة
لحظة صمت اندهش فيها عاصم؛ كأنه رأى ملامحه الوقورة فروًا يحوي أنياب ذئب تنهش، وقد تبخرت-يا للجبانة!- الأسئلة كلها بكل ما فيها، فغمزت ماريان عاصم قائلة:
-بهذه قد عجلوا بقتله، ليس صاحب الحنجرة الجوفاء
قال الشيخ متنهدًا:
-ليتني كنت مكانه
تعجبت ماريان وقالت:
-أهنا تحلو لكم الحياة؟
قال في لهفة:
-الطمع جميل، علّها تجعلني أشم ريح الجنة
قلبت كفيها فتركها ثم نظر لعاصم واستطرد
-يكفيك أيها الصديق أن تعرف أنني لعبت بثلاثة أجيال، المرء وابنه وحفيده كانا يسلمان راية الولاء لي، لا يتعلمون من سابقهم، لا يعرفون أنني أضربهم ببعضهم
انفكت عقدة من عقد عاصم وصاح:
-لماذا؟
-لأجل الكثير، كانت شمسة منهم
-محبوبتك؟
ابتسم الشيخ وقال:
-فازت بهذه المضغة الحقيرة، فنالت شرف أن أحرك بها كل الأحداث
-انتقام آخر إذن؟
عقد كفيه قائلًا:
-أنا أخالف طبيعة البشر، ستعرف كل شيء

(طاووسية لطيفة)

سعل الشيخ ثم ضرب الطاولة ضربة خفيفة وقال:
-لا أذكر كيف بدأت هذه الحياة ومتى ضربتُ الأرض صارخًا، كان حينما حسبتها متأرجحًا بين الخمسينيات والستينيات، كانت حياة بسيطة لطفل كما أتذكر قول أمي عني "لكعي كسول لا يصنع في الحياة شيئًا"، كان ذاك الطفل تعاسة البيت لم يفلح لتغييره ضربًا ولا نصيحة، فسكت الكلام وانكسرت العصا وبقيت نظرة الشفقة كعقاب أبدي رسموه على وجههم أينما مضيت
وضع يديه على خده ثم تنهد قائلًا
-اتفق عليها كل من حولي؛ أمي وأصدقائي بل حتى حين نويت أن أعمل وأرد شرف ما ألقي عليّ، لكنهم أبو حتى ولو بتخفيف هذه النظرات
نظر إلى الأعلى دامعًا ثم استطرد:
-لا تعرفون أن ألم النصال التي ستغرز في لحمي هي أهون عليّ من هذه، على الأقل بعد الألم راحة، لكنهم نسوها، كل واحد منهم يدلي بعذابه
قالت ماريان متعجبة:
-أصرخت فيهم
قال في أسى:
-كان صراخي يزيدهم ويحفز نظراتهم
-أفررت منهم، أرض الله واسعة
أومأ برأسه ثم فرك عينه قائلًا:
-كنت مطارد من هنا لهناك، الريبة تأكل ما بقي مني، عيني تخشى ترك الأرض لتتمعن في أوجههم، نيران تجتاح عيني لو أبصرت ابتسامة دلال أو لمعة طفولية، وكأن العقل قد رأى في نفسه قبلة للبغض
ابتسم ثم قال:
-إلى أن وجدته، هو من أنجدني من كل ذلك
قال عاصم:
-من هو؟
-كان شيخًا وقورًا يرتدي عمامة كعمامة كما سمعناه من وصف أصحاب السير الشعبية، رآني حين أضع مشروبًا لزبون في المقهى فاجتذبني ثم تهلل وجهه، طلب مني أن أحضر له مع كوب قهوة؛ كنت متعجبًا مندهشًا، والرجال من حولي يرمقونني ببهجة وحسد، ملت على المعلم صاحب هذه المقهى وأنا أهز كتفي فقال لي وهو يداعب "مبسم" النارجيلة:
-حظك بين يديك يا ولد
ثم قام وناولني بنفسه الفنجان ووضعه على صينية نحاسية براقة ثم دفعني إلى الخارج، ولا أدري ماذا يحدث وعلام يحسدونني، لكن لا بأس، هذا موضع قد اختفت فيه نظرات الشفقة، أبصارهم كانت الحطب الذي بدأ كل شيء
اعتدل في جلسته ثم قال بلهفة:
-وذاك الشيخ كانت شرارتها التي أحرقتهم في نفسي، تتصورون أنه قال لي لما وقفت على عتبة بابه مرحبًا "تفضل يا شيخنا" أتدرون ما كان لنفسي وقتها وهو يأخذ القهوة ثم يرتجف أمامي ويقبل يدي ثم يجلسني مكانه؟
قال وهو يرفع حاجبه ويهز رأسه:
-لوثة عقلية أصابته هي؟ لا أعرف، حتى الآن لا أجد لها سببًا
نظر متلفتًا ثم قال:
-فقط أجلسني عنده وسط غرفة تزدحم الحوائط بآيات قرآنية مزخرفة وفي وسطها مجمرة ينبع منها رائحة زكية أصابتني بالنعاس، ثم تركني وأغلق الباب، قوة ما ثبتتني في مكاني فلا أتبعه،

وما لي إلا الاستسلام لها، حتى لساني عجز عن نداء بسيط يخترق ذرات الهواء، شيء مبهم جعلني أجلس القرفصاء في زاوية وأتمايل مع دخان البخور وأجد روحي تتلاشى من جسمي وترتقي، ترتقي بين حاشية بهية لا أملك بخاطري أن أوصفها بكلماتي، حسبكم أن الشيخ قد أخذني من هذه الغرفة للشارع وهو يهلل:

-ذاك الوريث، الحكمة لم تنتهي بانتهائي

ثم ألبسني عمامته، وأنا كالحجر لا أملك نطقًا ولا حديثًا، فقط أمد يدي للناس وأسحبها حين ينحنون الناس لتقبيلها، والنفس ترقص غير مبالية، كيف كانت الحسرة وكيف للدنيا أن ترقيني إلى هذا الحد، نحيت الأسئلة بعيدًا وقلت في نفسي:

-فلنفرح، حق الجائع بأن يفرح بمائدة هبطت عليه

تعقدت ملامحه وهو يقول:

-لم أكن أتخيل أن هذه المائدة سمًا سيغلي جسدي

أدركه التأثر فقال:

-ما هي إلا ساعات وسأجد دوائي

وقع على مسامع الجلساء صوت وقع أقدام يقترب من فوق رؤوسهم، تملكهم التوجس ثم تحفز كل منهم لأن يهب واقفًا ويحركهم الفزع كما تتشبع النفس، فتجد ماريان تنظر هي ورفيقتها باهتمام للباب، بينما ارتعد الشيخ هلعًا وأخذ يردد:

-إنه الموت، هذه رائحته

وعاصم قد اقتبس من نفوسهم شيئًا جعل عقله يتشتت ويعود خطوتين للوراء، أدركته ماريان فاندفع قائلًا:

-كشفوا أمرنا؟

-وما يحزنك

-سيقتلوننا

ربتت على كتفي ثم قالت:

-تمهل واستمع، سيمفونية عظيمة

قطب حاجبيه وراح يحملق في وجه ماريان الذي صار مبتهجًا منتشيًا، بل كانت تترنم على هذه الأقدام والأصوات، مكثوا على ذلك يسمعون صرير الأبواب، ثم أقدام تتحرك وتثبت، وبفجأة يدوي رصاصة مكتومة، وتوارت الأصوات إلى أن عاد الهدوء، قال الشيخ:

-رائحة الدم الحار شديدة هذه المرة

قالت ماريان بمكر:

-ذاك الشيخ الخائف؟ يخاف من الموت قبل أن يأتيه

ابتسم عاصم هازئًا؛ يراها تعيره بما تخشاه، أو كأنها نسيت ما قاله صاحبنا يوسف، وفي الحالتين قد تمالك نفسه من تبدو على وجهه فتشاغل وهو يرنو برأسه إلى الشيخ الذي اعتدل وأكمل قائلًا

-قذفت من حياة لحياة أخرى، من كان لا يفلح في شيء صار في مرة واحدة تلميذ شيخ لا يعرفه، حتى لا يعرف مورد العلم الذي سينهل منه، كانت مأساتي ألّا أفرح طويلًا، فتابعته مهمومًا فلا أجد جديد؛ الشيخ جالس على أريكة مقابلة للباب وأمامه مجمرة للبخور منصوبة على حصير أخضر، ويقف أمامها الناس يتوجهون بوجوههم ليستقبلوا أدختنها، ثم يسألون الشيخ فيجيبهم بهدوء وبلين، يدخلون متفقين ويخرجون وكل نفس لها الحرية حتى لو نسجت مشاعر غير مفهومة.

حك رأسه ثم استطرد

وبعد اليومين أجلسني محله وراح داخل الغرفة، ظننته سيعود بعد قليل، فانتظرته ساعة، ساعتين، أكثر من ست ساعات، وقد تعبت من جلستي أمام هؤلاء ومللت من اعتذاري، فقمت مسرعًا إلى الباب

قال بأسى:

وكانت أول كرامة أراها أنه اختفى، ابتلعته الأرض أو صار دخانًا، يا لعجب من اختفى وقد جعل في غرفة ليس فيها أي نافذة

ضحك ثم قال:

-رأيتهم حين ركضت مرددًا بأن الشيخ اختفى يتبعونني، وأنا كنت أزيد إطلاق ساقاي للريح كي لا يطبقا عليّ، ولعل هذا ما أدهشني وأطاح بعقلي حين أمسكوا بي وهتفوا بإسمي، ووضعوا لي وشاحًا، كله يقول أنني وريث حكمته، ميراث لم أراه ولا أعلمه، حسبه البيت الذي سأرقد فيه ليلتي.

أدركته اللهفة قائلًا:

-كانت أول زواري هناك

قال عاصم:
-من؟
-شمسة، أتت إليّ بردائها الأسود تطلب مني حجابًا تضعه على جيدها يقرب الحبيب، وقع قلبي وأنا ابن الثمانية عشر في هواها، ولأنني أعرف مما سمعت ناولتها، لكن أنى لهذه الأوراق أن تحقق ما فعل حقًا، لكن المغفلين حين تغطيهم الخرافة، قلت لها قبل أن تغادر:
-ما اسمك؟
تعجبت فقلت مبادرًا:
-كي أخصكِ بالدعاء يا أختي
-شمسة ابنة يوسف
قلت متظاهرًا بالغموض:
-ستتعبينني معي قليلًا، فقد علمت أن ابنة خالك تدبر لكِ مكرًا
تفوهت بها جذافًا ورميًا بالغيب، فضربت صدرها وقالت بغل:
-صحيح، منذ أن كبرنا وهي تكرهني
-الأمر صعب
قالت في استجداء:
-وما العمل
-تشرفيننا بالزيارة غدًا، لنعرف خبر ذلك الأمر
أومأت برأسها ثم مشت، ابتسمت في راحة وهيام؛ كأن الدنيا قد تشنجت على ابتسامة واحدة حرك كأسًا موضوعة أمامه ثم استطرد:
-كان حلمًا غريبًا، أجل هو ذلك؛ غير معقول أن تنقلب الحياة بلحظة واحدة، أتسير أمامي حسناء وتأتمر بأمري؟ وسكان الحارة الضيقة التي كنت بينهم كبعرة يتحاشونها بطول الطريق كيف صرت بينهم هكذا شيخًا وذاك الرجل كيف اختفى وصار دخانًا؟! لعن الله الخيال والطموح! لله ما أشد خوفي إلا حين رأيت قدميها تداعب الأرض، ورأيت شيطان الهوى يلكز قلبي فيتغزل ويجد منها حبًا ورغبة في الوصل، قطعة من الجنة تراءت لي
مطت ماريان شفتيها ثم قالت:
-ما هذا كله؟ أتستخف بنا؟
-كلا، أسرد ما حدث
-وهل هذا يصدق؟
هز رأسه نافيًا قائلًا:
-حتى عقلي لم يصدق، كدت أفلت زمامه أمام هذا كله، وأصبحت أملكه ساعة وينفلت مني ساعة، سجال سخيف التجأت فيه للغرفة، دلفت بابها وجلست على عتبتها وعينيّ تراقب مجمرة البخور، تابعت دخانها وهو يتصاعد إلى السقف بانتظام، ولو أنني لم أدقق السمع لظننت أن هذه هينمة وتمتمة هادئة، ثم رأيتها
قال وعيناه تبرقان:
-رأيت الدخان يقبل عليّ، يطوف بجسدي ويغمرني برائحته، قلبي يلهث من كثرة خفقانه، عرق غزير يعتريني فجأة وبرودة تحتل أطرافي، ولمسة خفية جعلت جسدي ينتفض وأتمدد على الأرض وأتشنج، ثم أتى صوت عميق من المجمرة يقول:
-مرحبًا بالصاحب الجديد
انحل لساني فصرخت:

-أين أنا؟ أي صاحب؟
-صاحبي، منقذ رسالتي من الهلاك
-أي رسالة؟
-أما عرفت؟
قلت مرتعدًا:
-وهل تركت لي فرصة؟ رفعتني بينهم واختفيت
قال بصوت هادئ:
-ستعرفها، لكن عليك أن تعرف أنني لم أختارك عبثًا
قلت متعجبًا:
-أأنت نبي؟ أأنت..
قاطعني قائلًا:
-لا تكثرن في السؤال، لبي المطلوب وستعرف
-وما يضمن لي أنها ليست حيلة
قال هازئًا:
-هذه النظرة التي تراها بين الناس، نعمة الله التي حولتك لمكاني
أومأت برأسي؛ اتضح لي كل شيء، لا تتصدق الحياة بهذه الأشياء أبدًا، وكان يكفيني أن أسأل كيف أدفع حتى يظل الأمر كما هو، بل تظل نصف هذه اللذة بالمظهر الجديد.
نظر إلى ماريان في جمود ثم استطرد:
-كان الثمن فظيعًا، بداية ساقية الدم كما يصفونها؛ طلب مني أن تموت، تنحر من الوريد إلى الوريد
قالت ماريان فزعة:
-وقتلتها؟
-وهل أجرؤا على قول لا
-لعين، أنت لست بشرًا
قال مستنكرًا:
-أ نحن في واحة الصالحين؟ انزعي قناع البراءة قليلًا
استطرد وهو يتمالك نفسه من رعشة أصابت يده:
-أقبلت عليّ في الصباح بذات الرداء، انحنت لتقبل يدي، لم أستطع سد خوفي وجزعي، ونازعتني سيوف الضمير، ما لي وللقتل وللدم؟! ما لي وهذه النظرات أن تثبت على رفعة على حساب مسكينة لا أعرفها، سكت كل شيء أمام قولها، الحمقاء الغبية! قدمت رقبتها للموت، أظنت بعد أن قالت "كراماتك يا مولانا" ولوحت بفأل الخير أنها ستنجو، استعرت الشهوة فيّ، تستحق الموت، أتمنى أن أرى جسدها وهو ينتفض وتريد الروح الخروج منه، أردت ذاك العجز في عينيها، وكان ذلك.
ابتسم عاصم كأنه يداري صنيعه، وبداخله بهجة وفرحة بأنه ليس وحده، أو ليس بالجبار الظالم حين قتلها، وضع بينه وبين الشيخ قانونًا اتفقا عليه رغم تباعد الأزمنة
"الحياة حرب، وللمرء وسائله ليواجه"
سعل الشيخ ثم قام مواجهًا المشعلة وقال:
-هولت لها الأمر بأن هناك جني يترصدها-كان من بين ما حفظته من الشيخ- ثم قمت متمتمًا، أتابع وجهها القلق الخائف لم تتحمل الرعب والقلق فأمسكت بي وقالت:

-ما العمل؟
قلت بابتسامة متسعة:
-كله سيحل بأمر الله، تعاليّ معي
وقفت ثم مشت خلفي، أسمع ضربات قلبها الوجلة كلما دببت على الأرض، ثم أدخلتها الغرفة وأغلقت بابها، سمعتها تهمس ببعض الأذكار، كأنها تعلم أن خروجها لن يكون سهلًا، أوقفتها بجوار المجمرة ثم وقفت خلفها أخرج العصابة والسكين بهدوء قائلًا:
-أ متزوجة؟
-نعم سيدي
-لكِ أولاد؟
-ولد وبنت
ازداد خوفي أكثر، لكنه صار خوفًا ليس له داعٍ، سيصير كل شيء كما تمضي الشمس والقمر، فتنهدت وأمرتها بأن تجلس، ثم وضعت العصابة في عينها، وتحسست رأسها كالذبيحة، ومن ثم أخرج السكين وأشق بها رقبتها
ابتعد مسرعًا ثم قال:
-رأيتها تتخبط بين بركة الدم، حتى عينيها الشاخصتين وهي تبعث بالحسرة كانت تطربني، ولم أجد ما يلذ قلبي غير رقصة المذبوح، ورأيت الدخان ينبع من جسدها ليتلبس وجهي
رفع يده مخفيًا المشعلة وقال بلهفة:
-ظلمة أخفت كل شيء، كأن الموت أقبل في غير ميعاده، إلا أن أتى صوت -وهو نفس الصوت الذي أغواني- يقول بمرح:
-مرحى بابني البار، الآن أستطيع أن أهدأ
قلت مستفهمًا:
-أتعرفها؟
-أعرفها جيدًا، ستعرفها أنت كما رأيتها
-بعد أن ماتت
-روحها الخبيثة لا تزال موجودة، موجودة في مضغ ابنيها
قلت متحفزًا:
-إذن قتلهم أمر سهل
-إياك أن تفعلها، هذا يخالف مبادئنا
-أي مبادئ، وهذه الصبية؟
سكت ثم عاد كل شيء

تنهد قائلًا:

-عشرون عامًا وأنا هكذا، تارة أسير بأوامر المقام والأخرى بأوامر الشهوة التي ابتلعتني ومن ثم يدركني الفتور ويغالبني ضميري لأتوب وأعترف، لكن ذاك الجفاف يغذي الرغبة، وكلما قاومت كلما كانت الرغبة لها مكانة.
ضحك ثم أردف:
-حتى هذه البواعث تقدر مجهودي وإن استسلمت، أما هؤلاء سيقتلونني لو تكلمت عن شمسة وحدها
ضرب رأسه مستدركًا:

-أخ...صحيح أنني لم أخبركم أنهم ما تكلفوا السؤال
قالت ماريان في تهكم:
-أكانوا يحبون الخلاص من ذويهم
-لا، بل أحسنت غرس ما أريد
تعجب الثلاثة منه، رغم بشاعة ما فعلوا إلا أنهم كانوا ينغرسون في الدماء مكرهين، يتراءى أمامهم يوسف وقد جعل للقتل معنى جديدًا، يجعلهم يبحثون له على شفاعة تبعد عنه حر الجحيم، او حتى يرى أخته-كما رآها تعذب- من بين أستار الحميم تلهو بين أهلها ورفقاء حيها الذين صعدوا معها، لكن ذاك الشيخ كأنهم يبغضوه، قد صفع بكلامه وجوههم معيدًا مفهوم القتل لمكانه؛ بل يضيف عليه مفهومًا لزجًا، مبدأه زعم النمرود بأنه الإله لأنه يقتل وأنه الإله إن يعفو، ولا بأس من المفهوم المشوه عن الإحياء والإماتة أن يبني عليه ما يثبته، نبههم أنه سعل لينظروا إليه ثم قال:
-ولأن بوابة الحظ قد فتحت على مصراعيها، كان الشيطان قد ألقى إليّ زوجها المتلهف وهو يسألني عنها، فأحدجه ليرهبني ثم أقول متكاسلًا:
-من تقصد يا رجل؟
فرأيته يعذرني ويمم جهته للخارج فناديته وصرخت فجأة:
-الله...الله، قد درأت شرًا عظيمًا
-من؟
جرى على لساني دونما أدري
-شمسة بنت مستورة، ضحت بنفسها لتنجيك
ثم تشاغلت عنه بالتسبيح والتمايل، وقد أحسست بخوفه يزداد، كأنه يطحن دماغه وما تحمل من ظنون، فقلت له بثقة:
-اشترت نفسها للجنة يا بني
-م...ماذا تقول؟!
أومأت له برأسي فأمسك بتلابيب جلبابي وقد طاش عقله، وطفق يصرخ ثم يهدد ويوعد، وقد وجدت نفسي بعد ذلك أمسك رقبته وأجعلها تحت إبطي وأخذت أردد:
-خبيث يعادي أولياه، أبشر بلعنة تصب فوق رأسك
ومكثت على هذه وقتًا، ولأن مكتوبه لم يأت جد في مقاومة ثم استسلم ليقبل ما يجده من كتفي فتركته وجذبته برفق قائلًا في أنفة:
-لك شرف أن تحفظ ذاك السر، لم تتعبوننا وترهقوننا بنواحكم
أومأ برأسه ثم قال دامعًا:
-العفو والسماح يا سادة، هل لي بأن أراها
لك أن تواري الجثة في مكانها، في هذه الغرفة
ولما تقدم صحت فيه قائلًا:
-عليك أولًا أن تحل رأسها من مكانها
امتقع وجهه وبدأ يتهته فصرخت فيه:
-افعل ولا تجادل
انزوى إلى الغرفة وجلست أنا، غارق في عرقي وأزفر بأنفاسي الحارة لهثًا، نظرت إلى يدي الملطخة بالدم طويلًا فازداد وجعها فجأة، بل رأيت نفسي أبكي كما لم أصنع قبل
أطرق رأسه إلى الأرض وقال:
-للموت هيبة حقًا

ثم رفعها وصفق بيده واستطرد بمرح:
-لكنها تهون أمام اللذة
كادت ماريان أن تتقيأ فابتسم قائلًا:
-ألم أقل لكم أنكم ستخافون مني وتتمنون موتي؟
تركهم ليداعب المشعلة بيده ثم استطرد:
-لا أدري كم مرة سال الدم وتناثر على هذا المقام، سر إلهي يصعد ثم يغلق على الجثة وينتهي الأمر، أيام مرت وصارت الغرفة مقامًا كبيرًا مرفوعة أرضه عن الطبيعي بشبرين ومنصوب عليه ضريح، وأمام شباكه وضعت رأسها كالعجل، والمساكين نسوا فقيدتهم وصاروا يعطرون الوجه ويقبلونه، وكلها أنواع من نيل البركة وإن راعهم منظر الدماء، أختلق لهم قصة أو بشارة يسوقها زوجها-الذي صار خادمي وعينًا على الأولاد لي- فيهللون، في كل واحدة أرى فيها لذة وهي تؤدي رقصتها الأخيرة على أنغام.. لا لا بل على لحن الموت.

سمع صوت حركة السلاسل ثم جر باب ثقيل، فرفع رأسه ووزع إليهم ابتسامة تتسع كلما انتقلت لأحدهم، وقال بثقة:
-ليس الآن، ما هكذا يأتي
تعجب عاصم من وثوقه واطمئنانه، شيء ما استفزه في هذه الابتسامة ذات الأسنان المنفلجة الصفراء فصاح فيه:
-متبجح غبي، أهكذا تقف أمام...
قاطعه بهدوء:
-ومن أدراك؟ أأنت أنا؟
سكت عاصم مغتاظًا، كأنه أول مرة يرى من يتحدى الموت بلا شيء وبلا سبب، يؤلمه ضحك من ذوي الخبرة على توجس الهواة، ورأى الشيخ قد قال:
-أستطيع أن أعرف الموت من بينكم وإن دارته الظلمة، رأيته كثيرًا في أعين من قتلتهم وفي حركاتهم التي تخطئ بسبب انشغالهم به، وإن غفلوا عنه فهو لا يخفى على يدي، شمسة سلمت ولديها ذاك الضيف، كان يتنامى كلما غيرتهم السنين، يحاوطهم ويكبر معهم، كلما حاولت أنسى يذكرني أبوهم بحالتهم، في بعض الأحيان كنت أنساه من لمعة النهاية في فتاة ذاهبة لأجلها، أو رقصة النزع الأخير بين الدم القاني، وفي هاتين لا أرى فيهما بعيني، بل تقودني بصيرة.
لمعت عينيه وهو يستطرد:
-بصيرة نافذة، تصنع ما شئت بامتياز
أغلق عينه ثم قال بتململ:
-غير أن العادة مورثة للفتور، نيران مكتومة لا تجد ما يقلبها، حتى شيخي قد أتى قبلها لينبئني أنني صرت أعلى منه مقامًا، وقد قبل يدي، شمسة رأيتها ورأسها تفور من الدم، دماها كانت تغطي كل شيء ولا تتركه على حاله فيختفي حين يغور
تقلب وجه إلى الغيظ وصاح:
-عشت عمرًا فوق عمري تابعًا يحب ما يعمل، ووجد اللذة فيما يحب، ما لي وللقيادة؟ تركوني وتبرأوا مني بعدما سفكت وأزهقت.
تنهد في يأس ثم قال:
أدركت أن القيادة مثلما تسمعون وتعرفون، إطواء لصفحتي
ضرب الأرض بقدمه وقال بشراسة:

-لكنني لا أحب أن يأتي بعدي أحد، فأنهيت الأمر كله
قالت ماريان في قلق:
-وبأي طريقة؟
أبرق وقال بصوت كالفحيح:
-نهاية كالبداية وعكسها
رمقه عاصم بحيرة سرعان ما أدرك نفسه وأخفاها حتى لا يصيبه مثلما أصاب ماريان، وراقب الشيخ وهو يتحرك عاقدًا ذراعيه ثم وقف ورفع رأسه للسقف ثم تهلل وجهه وأومأ هامسًا:
-هي، يبقى النهاية فقط
مط عاصم شفتيه فاستطرد الشيخ بكبرياء:
-في مرة من مرات الملل، نسيت فقط أن أمرر السكين في رقبة إحدى الصبايا بشكل يجعلها لا تستطيع إطلاق صرخة، تركت فقط جرحًا أبلهًا، جعلها تصرخ هلعة ثم تركض، لكن للحظ أن مساعدي قد عاجلها بنصل حامٍ نفذ من رقبتها فسقطت، وصنعت الرقصة التي لا مفر منها ورأيته ينظر للجثة ويتحسس أنفاسها، ثم يقف ويشكو إليّ عن حال أولاده، فأضحك ساخرًا وأربت عليه بيدي المخضبة ثم أقول:
-كتوم حتى مع من ستدفن سرها معها
فيرد بعفويته:
-أخشى أن تحاجني بها، هكذا المرأة تجحد المعروف حتى لو بسترها
-ستر بدون صلاة ولا غسل ولا كفن، فلها حق أن تجحدك
-لو كان غيري لما صنع كل هذا وأتعب نفسه
أومأت إليه فطلب مني أن يدخلها ذاك السرداب، فأمسكت يده لأسأله:
-كيف حال أولادك؟
قال في أسى:
-كما هم، البنت لا تزال غاضبة منك
-والولد
-يرسل إليك قبلة وطلب بالدعاء
نظر إليّ وقال في يأس:
-لو كان بملكي لكانوا تحت قدميك كلهم
-ومن أدراك أنني أريد ذلك
-ماذا تعني؟
نظرت بجدية وقلت:
-أحضرهم إلى هنا فحسب، هناك أمر جلل
امتقع وجهه وكاد يسقط جوار الجثة، فأمسكت به قائلًا:
-الست شمسة تريدهم
-لكن ابنتي حبلى في شهورها الأخيرة
صحت في صرامة:
-أتعصى أوامري؟ أجحدت يا هذا بعد عمر؟
قال في لهفة:
-نسيت أنني قد تعلمت في هذه الجثث تحضير الأرواح، أختار جثة طفلة صغيرة وألقي عليها تعويذة فتحدثهم ويحدثونها

ضحك الشيخ قائلًا:
-كالعادة يمم الخادم ناحية الباب يهاتفهما، ابتسمت وأنا أخرج مسدسي كاتم الصوت واتسعت حدقتي لما أقبل، كان هادئًا لم يصنع شيئًا وأنا أزرع في جبهته وصدره سبعة رصاصات ليلقى على الأرض ميتًا، تأملت وجهه الذي يسرح فيه الدم وبركة الدماء التي تمتزج بدماء الصبية، ثم تمتمت:
-لا تزال الرحمة في قلبي يا رفيق
ثم تأملت وجه الصبية وعينيها الجاحظة وغمغمت:
-ستقفين في آخر الصف في ساعة الحساب
قمت وأنا أرفع جثة الخادم خارجًا:
-سأكون رحيمًا بهم، فهذه القتلة بواسطتي أنا، ليس أمرًا
ثم قال في لهفة:
-جلست على دماء الجثة، دبقة لتثبتني فأسمع كل شيء، خطواتهم تقترب وهمهماتهم وبفجأة يسمع صرخاتهم وبكائهم، فقمت متثاقلًا أتأمل المسدس، أضع فيه خزنة جديدة وأهندم الكاتم وأنا أطرب لحديثهم الهلع الأخير
جحظت عينه ثم ضحك وأردف:
-خزنة واحدة أفرغتها في أجسادهم، ولأجل أن الولد اليافع يحبني نال طلقة في رأسه ووقع، بينما الفتاة نالت نصيبها الضعف لأجل ابنها، ولم أهدأ إلا وقد ثلجت جلودهم، ثم هدأت نفسي وقلت مغمغمًا:
-انتهت الدائرة، والآن ينتهي كل شيء بإرادتي
لم تتحمل ماريان كل ذلك فدفنت رأسها، عاصم كان يسمع خنينها فرق لها وقد كادت عيناه تذرف لحزنها، حتى الصاحبة الصامتة قد ذرفت دمعتين بتأدب لهذه المأساة، بلواهم وشرهم صارت هينة، وفي بكائهم طمع لربهم أنهم ليسوا مثله.
تنهد ثم قال:
-بجثة طفلة جذبتها من شعرها خرجت إليهم، لن أحدثك عن الصدمة التي ضربتهم، يكفيها أنها أخرت قرار الإعدام عشرين سنة، وبهذه الجثة صعدت البقية والبقايا

سمع صوت أقدامًا تقترب فهز رأسه وراح ناحية السلم، هم عاصم بأن يتبعه فجذبته ماريان وقالت بما تحمل من غيظ وغلظة:
-دع كبريائه يكمل معه
فتركهم كأنه لم يسمع، أغلق الباب بعنف ودبت قدماه الأرض، ما لبث أن سمعوا صرخة هلع تتلون بالألم مع صوت النصال، ثم وقعة ارتج لها السقف ثم صمت عميق، ينظر فيه الثلاثة لبعضهم نظرات تحمل ما استطاعت حمله، وقطعته ماريان بقولها:
-ما عاد لنا مكان هنا، هل تسمح لنا بأن نجلس معك طيلة ما يسمحون لنا
قال عاصم بتوتر:
-أضاقت علينا؟
-لم يبق غيرنا
-ولمن أحكي قصتي؟ للخرساء؟
ضحكت قائلة:
-هذه أختي، نحن مصيرنا معلق ببعضه

قال مندهشًا:
-فلمن أقص عليه؟!
-الوقت طويل، وأنا حكايتي يستطيع النسيان أن يطويها بين أكمامه
ثم صعدا إلى السلم، رائحة الدماء صدمت أنوفهم، فأشاحوا بوجوههم للأسفل، وهمست ماريان:
-حتى الحرس خافوا منه
-أيعرفون الخوف؟
-الخوف يتجلى في رؤيتهم لمصائرهم

22 أكتوبر 2017
كانت أنسام ما بعد منتصف الليل تتهادى عليهم، نوع من رحمة إلهية طوافة بهذه الأقفال الثقيلة والأصفاد الصدئة، من نقاوتها تمتطيها روائح الدماء والعفن فتلقى على النفس وتصاب من توها بالصدمة، يعترضها الذنب وهو يتصارع مع الندم وأمامهما الخوف يعزف أنشودته المحفوظة، ثم يصفق النعاس بهدوء شديد فيسكن الصراع ويلين، ولا يبقى إلا شعور بسيط يجعل أقلهم كلامًا أن يصفها بأنها "ليلة صافية".
وبين طيات تلك الليالي يجلس عاصم مستندًا على الباب يتأمل أي شيء تدركه عينه، ملابس صاحب الغرفة السابق، ماريان الراقدة متوسدة ذراع أختها، فراغ مظلم يمثل فيه إلقاء جثة "رشا" من الشرفة، خيل إليه أنه وهو يحملها أن جفنها قد ارتد وعنينها المسبلة قد ضربت عليه اللوم ثم الحزن، أشياء غريبة قد ورط يداه فيها، ما كان ليلقي نفسه في هذه متاهات لا يعرفها، كان عليه أن يرضى بقواعد الحياة المملة، أو يجبر نفسه على الابتعاد عنها، هكذا ما تردد إليه من حديث دخيلته التي تروم فيه لومًا ليعود كما كان عليه، لكنه لا يستطيع تلبية ما ترغب.

رفعت ماريان رأسها ثم ابتسمت لما رأته ماثلًا وقالت ببعض نعاس:
-جيد أن الحياة منحتني هذه المتعة
أدركته الدهشة وصاح:
-ها هنا؟!
-ولم لا؟ المواطن الخبيثة لا تتركها الأنوار الطيبة
-أنوار جعلتكِ لا تتحدثين يومين كاملين
هزت رأسها قائلة:
-نتدرب
-على ماذا؟
-أنسيت أنني وأختي سنلحق بهذين؟
خفض رأسه محزونًا فضحكت ثم أردفت:
-أتمرن لأنني أحب الثرثرة، أخشى اشتياقًا للحديث وقد تدلى فكي
أومأ برأسه ثم غمغم بكلمات مواسية فصاحت به:
-أول مرة تأسى على بشرية هنا
-لا أدري، لكنكِ رفيقة لطيفة سحبتِ عقلي لذاك العالم
اهتز جسدها طربًا، فطن عاصم أنها لم تتعود على هذه الكلمات المادحة إياها، حتى أنها كلمات عادية يتفوه بها أحدهم لصاحبه مجاملة، وما في القلب يحجبه اللسان، لكنها كانت تعلم أن ذاك أفضل شيء تودع به عالمها وسخافته وكآبته، ورآها تقول في دلال:
-فراستي لا تخيب أبدًا
-وما كان ظنكِ
-فتى له عقل سيهلكه
امتقع وجهه فأردفت:
-لا تخف، هي ليست نبوءة كاهن
-لكنها إن صابت
سكت يمسح وجهه متوترًا، فقالت له:
-عليك الحذر فقط

-لكنه لا يمنع القدر
-حسبه أن يخففه
قامت بحركة هادئة كيلا تفزع أختها، ثم وقفت إلى الباب تتأمله وتتحسس قضبانه، ثم التفتت مسرعة إلى عاصم مبادرة:
-هل أمامك قماشة
-لماذا
-هاتها وحسب
ناولها إياها فأخذتها تمسح بها الباب، كاد عقله أن يجن مما تفعله، كأن الوقت يسع لهوسها عن النظافة في بورة قذرة
ألقت بها بعيدًا وقالت متنهدة:
-جيد، هذه الأمنية قبل الأخيرة قد تحققت

أدرك صاحبنا العجب من كلامها فاستطردت:
-سيأتون عما قريب
برقت عيناه مستفهمًا فقالت:
-رفاق الموت
-لكن قصتكِ لم تروى بعد
تجاهلته ثم نظرت إلى أختها وقالت:
-كلانا يسوق قدره إلى الآخر، حتى الموت
-كيف
-أيقظها أولًا، أتمنى أن ترى الحياة قبل سباتها العميق
أطلقت صافرة ثم أردفت:
-ها هي أمنية مثل أخواتها، مثلما أردت أن تتفوه بكلمة، مجرد كلمة ستنجينا
هز عاصم الفتاة فأخذت تتلوى من أثر النوم وتصيح بها أختها مسرعة
-هيا عليكِ أن تنعمي بهذا الهواء
ثم تقدمت إلى عاصم هامسة:
-أتعرف طريقة إعدامي، سأموت شنقًا، تعرف أن مبدأهم هو الجزاء من جنس العمل، لكنني من سيتعذب، ضحيت بساعات الراحة لأجل أختي أن ترتاح، ستقضم رقبتها وينتهي الأمر
نظر إليها عاصم دامعًا، قلبه كاد ينفطر من كلماتها، مسكينة تحاول بوح ما بها بطريقة تتحدى بها الموت مثلهم، تحدٍ هزيل هذه المرة، تعابثه ببعض الحركات وما هو بمزحزح
جثت ماريان بجوار أختها تداعب شعرها، ثم تبتسم قائلة:
-بوسعي أنني سأكون ضيفة ثقيلة عليك لعدة أيام بعد موتي
-طيفك سيزورونني؟
-بل سيبقون جثتي معلقة
-ما هذه البشاعة؟
قالت في هدوء:
-بوسعك أن تحدثني بقصتك، سأسمعك بالتأكيد
قال بنبرة اليائس:
-وهل يفيد الحديث مع جثة؟

-وهو لن يفيد من يسحب إلى موته
سمعت وقع أقدام فأمسكت بيده تطمئن عينه المجهدة ما قاومته من دمع، فقالت له تواسيه:
-ستكون قصتي في أحد جيوب الرداء، اطمئن فهي ليست طويلة
ابتسمت بهدوء ثم اقتربت من أذنه هامسة:
-أنا لا أجيد الكتابة، أختي ساعدتني
أنهت كلمتها والوقع كأنه يهوي على رأسه، يقترب فيزداد إيلامًا، حاول إخفائه بإيماءة أو تأملًا للسقف لكنها تظهر على قسماته وتغلبه، ولحظه أن سكرة الانتظار قد غلبت عليهما، سمعوا جميعًا ارتطام الحديد فسرت في أجسادهم رجفة، فيظهر أمامهم حرس واقفين وبيد أحدهم حبل طويل قام بخفة ليضعه في كوة فوق الباب، أمر عاصم أن يسحبها فنظر إليها بعين دامعة؛ لا يريد أن ينتهي الأمر بهذه وسيلة، جال في حلقومه غصة تنفرد بسؤالٍ وحيد "هل الغاية تختار وسيلتها؟"
استبطأ الجندي نظراته فصرخ:
-هيا، نريد أن ننتهي من هذه القضية السوداء
فعل عاصم ما أراد، تدلى الحبل حتى وقف عند رقبة ماريان، قام آخر بعقده وإحكامه على رقبتها وهي ماثلة لا تصرخ ولا حتى تبكي، أصدرت فقط ملامح جادة تجعل الحارس يتردد في عقدة أو عقدتين، ثم عاد ناحية الباب ويقوم ثالثهم بسحب أختها خارجًا، نظرت إليها ماريان وتابعتها إلى أن دخلت غرفة قريبة وأغلق البابين، تنهدت لتطمئن نفسها ثم رمقت عاصم الذي أدار وجهه للحائط ليبكي كما شاء ونادته قائلة:
-وفر بكائك حتى تصعد روحي
أطرقت رأسها إلى الأرض ثم تمتمت:
-على الأقل تساعدني في الخلاص منها
-ألا يوجد مقاومة؟
-لأجل من؟
قال ماسحًا دمعه:
-لأجلي
-أتيت متأخرًا، نفد كل شيء
سمعا صيحة تنبئ بإتمام الأمر، ارتدت ماريان لتلتصق بالباب وهي تهمس:
-لا تقلق، فتش في جيبي وستجد طعامًا يكفيك
أومأ عاصم وقال بمرارة:
-لكِ ما تريدين
أتى الصوت يصيح قائلًا:
-أتريدين شيئًا
همست إلى عاصم:
-أريد أن أذهب لل...
قطع صوتها صيحة التنفيذ، وبفجأة ارتفع الحبل بها لترتطم بالحائط، تجمدت أطرافه وبقيت عينه تحفظ تشنجاتها المؤلمة ومقاومة يدها اليائسة، ما لبث أن رأى الماء يتقاطر من ثوبها، وجم لها عاصم وأخذت دموعه أن تتسلل على خده، وفي خاطره ألف سبة لهؤلاء، تركوها لميتة مهينة، خذلوا روحها أن تخرج من جسدها نظيفة بلا بول، مرتاحة بلا عناء، انطلق ناحيتها ثم جذب قدمها للأسفل، جذبة تلو أخرى وبعد ذلك خفتت حركتها وقد انسدلت يداها بلا حركة وانقطعت أنفاسها وثبتت عينها، رق حاله لفكها المتدلي لما رفع وجهها، أغمض عينيها كاظمًا بكائه، ثم

همس:
-أي ذنب فعلتيه يا صغيرة؟
أبصر وجهها ثم قال:
ذاك الوجه لا يعرف سفك الدم
حاول حملها لينزلها فآتاه صوت الجندي صارخًا:
-لا تنزلها، وإلا قتلناك
ابتعد عنها مرتعدًا، كأن الجسد يسخر منه؛ من يخشى الموت وقد أحاط به؟ سلبه الأمل، أذل محبيه، لكن النفس كما هي، تخشي من طعم الموت أن يذيقها مرًا بعد أن حلا في فم أصحابه.
فقط مد يده بحذر يفتش جثتها ليجد عدة أوراق مطوية في حزامها، نظر إليها ليجد مكتوبًا على ظهرها كلمات أصابته بالعجب
"كنا نمزح فقط"

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

"سيدي، على ماذا تبحث؟!"
صاح بها العم يونس إلى رائد المنهمك بين أوراق متناثرة أمام مكتب رشا، أفرغ كل الأدراج في سرعة بنظرة خاطفة على كل ورقة، في خلده شيئًا محددًا يرغب في الظفر به، حتى أنه لم يسمع نداء الشيخ الملهوف الذي لا يفهم ماذا يجري حوله، ولما أدركه اليأس والتعب استطاع سمعه حين كرر نداءه للمرة الثالثة، رفع رأسه متثاقلًا وقال:
-هناك شيء مهم كنت أريده
لاحظ علامة التعب على وجهه فقال بحسن نية:
-أفهمني سيدي، علّ الهم يهون عليك
هز كتفيه قائلًا:
-أما لاحظت "رشا" -رحمها الله- تتناول عقاقير أو مهدئات
-ولم السؤال؟
-أجبني فقط
-كانت تتناول "أسبرين" لسيولة الدم
قال في لهفة:
-أكانت مريضة؟
-جلطة قد...
قفز مرحًا، ثم أمسك بيونس وقد اتسعت عيناه زادت صاحبه هلعًا وصاح:
-أين "الروشتة"
-روشتة؟ هذا مجرد أسبرين
ضرب المكتب بقبضة يده يغمغم مغتاظًا:
-اللعنة! لذلك أكره الأطباء
-لعلي أتذكر شيئًا، أخ..هناك ورقة لرسم القلب في هذه الأدراج
-ومن أدراك
قال متعجبًا:
-أنا من ناولتها إياها بعد ظهورها
ثم خفض رأسه قائلًا:
-ليرحمها الله، كانت ضربات قلبها ليست جيدة، أذكر أن الطبيب ق...

جحظت عيناه، نفسه تشتعل من حماسة جعلته قواه لا توفي طاقته فيقع غارقًا في عرقه، ثم يقوم ينظر إلى صاحبه المندهش صاحب نظرات الخيبة فيرتب نفسه ثم يتنحنح قائلًا:
-م..ماذا قال؟
-قلبها معتل من أدوية السيولة، وزعم أنها لن تعيش طويلًا
-ممتاز
انتفض قائلًا:
-ممتاز؟ هذه...
قاطعه متبخترًا إلى الباب ثم قال:
-ابحث عنها وهاتها فحسب
وجم يونس ثم قلب كفيه؛ لا يدري ماذا حل بعاصم ليبقى في هذه الحماسة، أليست هذه من كان يعذب هواه في النظر إليها؟ أم أنه ينتقم منها بالشماتة، ثم تمتم بخفوت:
-أم يريد ليفلت رقبة عاصم
مط شفتيه ثم قال:
-ما لي ولهذا، أنا عبد المأمور

لم يتمهل رائد بالجلوس على الكرسي إلا وقد أخرج هاتفه وضرب على لوحه رقمًا ثم انتظر وهو يداعب الأرض بحذائه، سمع صوت غليظًا يقول:
-جابر معك، تفضل
قال بتشوق:
-جابر أنا رائد، أطلب منك شيئًا مهمًا
-مُر كما تريد
مسح عرق جبهته ثم التقط أنفاسه قائلًا:
-تعرف تلك الجريمة التي حدثت للسكرتيرة عندي، أليس كذلك
-بلى، كنت معك وقتها في جلسة التحقيق
داعب بعض الأوراق ويقول وهو يخفض صوته:
-أتذكر ملابسات هذه القضية؟
صمت الصوت ثم أجاب بحشرجة:
-أذكر أنها وجدت ملقاة بعد إلقائها من إحدى الطوابق العالية، ووجدوا شخصًا يصرخ بأنه القاتل
سكت هنيهة ثم أردف:
-كان يعمل لديك هو الآخر
ارتاح رائد ثم هبط على الأريكة وصاحبه قد سلك معه نصف ما يبتغي ويريد، وقال بثقة:
-اكتشفت شيئًا جديدًا
-وما هو؟
-القتيلة لم تمت من الشرفة
قال مستنكرًا:
-الطبيب الشرعي رأى أن....
قاطعه قائلًا:
-اسمعني فقط وستفهم

صمت فسعل واسترسل في الحديث، أقنعه بفرضية أنها أفرطت في تناول الأدوية فجائتها نوبة قلبية وقعت على إثرها وقد توقف النبض، وأن صاحبه خاف فهم ليتخلص منها، كان يتوقع أن تروق له ويعجبه الحديث، لكنه رائد ضاحكًا ثم أسمعه ضرب فخذيه من شدته، فصاح رائد وقد أكل وجهه الخجل:

-ألا يوجد مخرج؟

صاح متعجبًا:

-ما لك وما له؟ القضية مغلقة ومكتملة أركانها

-لكنها مسألة ضرورية

زفر زفرة شديدة أزعجت أذن رائد وقال:

-فقط ما نحتاجه دليلًا على صحة كلامك

-اطمئن...موجودة معي

زم بشفتيه فلان رائد وتبسط، أدرك مبتغاه من صاحبه وصار كل شيء لحظه، لكنه تفاجئ بجابر يقول:

-لكن بهذه ننفي عنه شبهة القتل، أما إلقاءها وصياحه سيجعله محل شك

لوح بيديه عبثًا وصاح ضاحكًا:

" سكة أبو زيد كلها مسالك"

فضحك الاثنان ثم ودعه وألقى الهاتف أمامه، أطلق صافرة بارتياح وقد هدأ، تناسى ما كان بينه وبينها حتى صار يحتال بالألاعيب لتصلح قاتلة ضحية نفسها، وعكرت المصلحة وفاءه وبراءته، نفسه كانت تطن كالعادة لكنه أسكتها بأمانيه الفرحة حين ينجو ذلك الصبي، فأصبحت مجرد محطة تعرقل في موتها وما يلبث أن يقوم ويكمل

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

ساعات مضت على عاصم لا تغير ثباته، يقبض يده على الورقة وعينه ثابتة على جسد "ماريان" المعلق، ليس لأنه يغبطها على أثر نعيم بادٍ في وجهها أو يتساءل على سوء نهايتها، بل عقله يتوه عليها ككل، يقف أمامها عاجزًا على تفسير أي شيء فيها، يرى فقط قتامة لوجه محجوب ثلثه بخصلاتها والباقي كوجه النائم يضعه عقله بمقارنة بسيطة مع "رشا" حين رآها فلا يجد فرقًا خالصًا، كلاها جثث مقطوعة النفس كالدمى، حتى حزنه على نهايتها تلاشى أمام حركة الجثة كبندول الساعة تداعب الحبل، لا يوجد إلا مهابة توزع على كل سبب؛ روح صاعدة وجسد انقطع حركاته وأثر موت لم يفارق المكان بعد

دفعه ذلك كله إلى التردد في فتح الورقة؛ يخشى من أن تتلون هذه المهابة إلى ما يزيد خوفه أو يجعله يتمنى أنه لم يقرأ، أخذ يردد:
-بنت الغموض أنتِ
صوت رجرجة في الخارج شد انتباهه، وإذ بالجثة تثقل الحبل فتنزل ببطء شديد من الباب ثم فجأة انجذبت بشدة، جعل عقدة الحبل تتزحزح قليلًا فيتثبت بشكل مائل، يرفع معه رقبتها فينظر إليها عاصم مشفقًا؛ وجهها صار شديد الشحوب من ذاك العذاب، كأن ملامحها تنبئه بخبر ما، خبر غير مفهوم بين قسماتها الباهتة وحركة هادئة من الحبل يخشاها قلبه من أن تهوى بها واقعة على الأرض الدبقة؛ يجد نفسه كذلك فيسخر ويقول:
-أتقلق على ميتة؟ ولم تقلق وهم نسوها معلقة في قيد أختها
سكت ولم يجد بدًا من أن يفتح هذه الوريقات مذعنًا، اقترب من ضوء واهن بين جثة ماريان والباب-انثل بعد أن تحرك الحبل- وراح يدقق في أول ورقة.

"صديق أتى ليقرأ؟!، ذاك يوم سعدي؛ أنا لم أجد فرصة لأحد يسمعني، لو كنت وجدت واحدة لما كنت كما تراني الآن أو تدرك مصيري، وإن لا تدرك فهم حكموا عليّ بأحكام عديدة، ترتيبها في أوراق ثلاثة بعد تلك تحمل كل ورقة حكمًا، لو كنت ملولًا تمل من هذه الأشياء حسبك أن تعرف أن هذه الأوراق سقطت من ملابسي إن جردت منها ودفنوني في قاعة من القاعات الرطبة، أو ربما التقطت من الجندي الملول من معاناتي مع الموت، سأكون قطعة لحم ساكنة على أي حال، أتيت بسببها وسأصير كما صارت.
انتهت الورقة الأولى فوضعها جانبًا، وهو يتأمل هذه الملامح مرة أخرى، فاجأته أنها تتلون للحزن، ترثي حالها وهي لا تملك ثني رقبتها أو حتى فك عقدة تفرج عن صوت لتصرخ به، وأنى للجماد ذلك، مد يده للورقة الثانية فوجدها طويلة، غطس فيها متمتمًا:
-ليتني أخلصكِ من هذا كله

"كنت قبل بضع سنين فتاة مراهقة عادية، ليست لها مزية تعجب هذا ولا ذاك، أسمع كلمات غريبة يتبعها سخرية غير مفهومة لأمتعض أو أعترض، جدتي كانت تبدأها بقولها "خراط البنات نسى أمرك" ثم تضحك فيتبعها من حولها، وأنا من بين هذا لا أفهم، خراط؟ ما هذا؟ أبائع حلوى هو؟ أنا لا أحب الحلوى لأنها كسرت لي سني من قبل، أراهم يقفزون ويجتهدون أيهم يضحك مجلس العائلة، كأي شخص برئ انعزل عن الناس بعد موت أمه كنت لا أفهم، أبتسم وأهز رأسي، كانت الوحيدة التي تنظر إليّ شفقة، قامت فصاحت فيهم ثم أخذتني، قالت لي حينها:
-لا تحزني هؤلاء أغبياء يحبون الأشكال
فأومأت مثل البلهاء لا تفقه شيئًا، عرضت عليّ أن أمكث معها في بيتها، هي كانت تعرف أن أبي لا يأتي إلينا إلا كل مساء يضع الطعام والدواء ثم يعود لما جاء، وبعد إصرار حلحلته إلحاحها

ورجائها فوافقت، استطعت بأعجوبة أن أقنع أختي التي تصغرني بعام على اصطحابي، وليتها ما فعلت.
الطريق كان باردًا هذه الليلة، الفتاة هادئة تتنهد وتتحسس كتفها ثم تمرن يديها انقباضًا وانبساطًا، نرمقها فقط متعجبين، ترمي إحدانا طرفة فنضحك بصوت مكتوم، ولكنه إن بدا منه خشخشة أو شيء لم تسمعه، فقط تسير بثبات وهدوء إلى أن وصلنا، وأخذت تجد في السير لتسرع في فتح الباب، ثم أجلستنا في غرفة ما دون كلام، جلسنا لا نفهم ماذا تريد، فقط جو جديد غير مظلم، وفضول لنرى كل حاجاتها الملقاة على المنضدة السوداء، أخذنا نتفرج حتى أدركنا الملل فتجرأت أختي وخرجت دونما أدري، ودريت وهي تصرخ صراخًا جعلني أجري ناحيتها، كان بيدي مسدسًا التقطته، رأيتها واقفة تضع يدها في فمها وهي تهتز، ناديتها لكنها لا تستجيب إلا لهذه الرجافات، مدت يديها مشيرة إلى الغرفة فتقدمت بحذر، ورأيت أضواءً خافتة في وسطها السيدة، لكنها تتدلى من السقف معلقة بملاءة تدور بها، اقتربت منها وأنا أناديها فأفلت مني المسدس وأطلق صوتًا جعله يطير من يدي، وإذ بدم يبقع صدرها، وأختي تصرخ فيّ بأنني قاتلة، وعلى صراخها أتى ناس ورجال بزي موحد يضربون الأرض ليسحبوني وأختي، أحداث غريبة كان سؤالها الوحيد الذي يشغلني "كيف مرت الطلقة فيها ولم تشعر بخلاف أمي؟"

ضم الورقة الثانية لأختها وهو ينظر إليها، صبغة جديدة في ملامحها قد ظهرت؛ مسكنة وبراءة كالخيط الرفيع يتكاثف بين أجفانها المغلقتين، جعلت عبراته تقف إليها وهي تتدلى قليلًا وتحتك بالأرض بخفة في اهتزازها، كأن أحد ما يعبث خارجًا بالحبل، هم أن يصيح ويسبه لكنه خاف، ولا يدري أخاف على حياته أم خاف أن يعبثوا بهذه الوديعة.

فض الورقة الثالثة وقد زحزح نفسه ليقترب من الجثة، وأخذ يردد ما بها بصوت خافت متوهمًا أنها تزداد أنسًا بهذه الكلمات أو تفتخر بأنها تردد حكايتها في عليين، ولكن أدركته الحسرة حين سمع نبرات صوته وهي تعرف أنها خائبة الرجاء.

"اقتادوني إلى مكان ضيق مليء بوجوه غريبة كهذه السباع التي أراها في التلفاز، مرت الليلة الأولى كالعادة عندي بين الخوف والأمل، كما قلت لك أنني ألفت الوحدة في بيتنا، غير أنها أفضل من بيتنا؛ أنس شديد بهؤلاء المسجونات وحكاياتهم التي كنت أحفظها، حتى أن جفوتهم لم تدم إلا ليلة، أصبحن يحبونني ويتعاملن معي بلطف غريب، كنا نغني ساعة التريض ونمازح بعضنا قبل نوبة النوم، لا أعرف ماذا حدث فجأة، قفص كبير وضعت فيه أنا وأختي ثم صوت غليظ بكلمة ما كنت عرفتها قط؛ كنت أسئل الجندي الواقف خلفي "ما معنى إعدام؟" فضحك وهو يداري وجهه، أقلت شيئًا يضحك؟ كنت لا أفهم أن هذا مثلما فعلت قريبتي الطيبة، لم أجد من يعرفني بأنها يائسة أرادت الموت ونحن نؤنسها، لم أجد من يوضح لي أنها أوقعتنا في شرك جريمة، بل اثنين، وكلاهما كان حسن نية مني"

فرغت الرسالة من حروفها، راعه أن الحبل يزداد تراخيًا، الجثة مالت بزاوية حادة، قام عاصم مسرعًا إليها واضعًا ذراعها على كتفه يقاوم وقوعها، وكلما تراخى الحبل كان ثقل الجثة يتزايد على جنبه، إلى أن صاح الجندي خارجًا:
-انزع العقدة
اندفع مسرعًا يجذب العقدة لتنفك، عينه كادت تنفجر من كثرة تدقيق عينيه وغله، تمتم من فرط غيظه:

-أعلى هذه يتجرأ هؤلاء؟، أوغاد!
وما أن انحلت بعض شيء جذبه وقذف به، اقترب جسدها من أن ينزل به للأرضية، شيء ما جعله يحاول أن يجرها إلى "بطانية" ليرقدها عليها، وكلما مالت به همس إليها قائلًا:
-اصمدي، بقيت رسالة واحدة
طرحها ثم عاد إلى الوراء، تذكر أن هناك سجل ماء في إحدى الجنبات، طار ليجلبها ثم سكبها على ماريان ينظف بها أمنيتها الأخيرة، لا يفقه كيف الغسل لكنه أراد أن تعانق الأرض فتتباهى ذراتها لتحسدها بهذه الديدان والذباب، جلس بجانبها واضعًا يديها على صدرها فباتت كالملاك، ملاك ملطخ بدهاء ابن آدم وحيل الشياطين، وما ذنبها إلا أنها عاشت بينهم، وكما المسار المعروف لهؤلاء أن يطبق عليهم ذاك الحبل الخشن ولا يرون أثره.

"الجثة لن تدفن الآن"
صاح الجندي بعاصم بعد أن فتح الباب، أسعفته المشاعل أن يرى أختها تجر إلى الخارج، نظر إليه بيأس وتأمل الجثة وهو يقول:
-ستتعفن لو ظلت هكذا
قال في ملل:
-وما ذنبي، الجثة الأخرى أخذت آخر حفرة
-ضعوها مع أختها، أنتم لا تغسلونهم
-الحفرة ضيقة، انتظر لمساء غد فنرجع لنعرف أي أرض س....
-الجثة ستنتفخ مساء اليوم، تقول لي الغد
قال بلهجة آمرة:
-هذه التعليمات
-إذن دعني أدفنها هنا
وجه فوهة البندقية إلى وجهه صائحًا:
-إن حفرت شبرًا سنلحقك بها
لم يجد بدًا من أن يستسلم، فسكت ووضع يده على خده، ورجع الجندي للممر، داعب سلاحه ثم صاح:
-نصيحة، أفرغ كل ما في جيبها حتى لا يتركونها معلقة
قال في دهشة:
-كيف؟
-في أدراج المشرحة
ثم أغلق الباب وترك عاصم كالمجنون يفتش جسدها، وكان ما ظفر به بعض حبات اللوز ورسائل يوسف لأخته الشهيدة، وسلسلة فضية منقوش عليها اسمها، التقط الرسالة الأخيرة من جيبه بعدما اطمأن بأنها ستمضي بلا أي شيء، مجرد رقم سيضرب على جبهتها وترمى في حفرتها، وفي هذا الظلم كان يراه قمة في العدل، كان يجده قمة الراحة لها؛ الطيبون لا يحبون الإزعاج.

شعر بلفحة هواء بارد قرصته، فهب ناحية ماريان يضع غطاءه الآخر عليها، ثم رنا إليها يائسًا وهمس:
-أعلم أن الموتى لا يشعرون بشيء، لكن اعتبريها بقية رحمة

وما له إلا أن فض الرسالة الأخيرة وردد ما بها وهو يمسح شعرها البارد
"لو كنت تكره الملل والقراءة، فهذه خلاصة القول ونهاية حديثي، أثر ثرثرتي الكثيرة وصمتي الذي لا يطول إلا في هذا القبو، قبو لطيف أخذوني إليه أنا وأختي، ما لي لذلك المكان إلا أنني صنعت بزميلتي اللطيفة ما فعلت قريبتي، تصورته شيئًا لطيفًا، لكنه لم يكن كذلك، أتدري أنهم قالوا أنني سأموت مع أختي في ذات اللحظة، وبعد ذلك يلمزونني بأنها ستموت مبكرًا، ستعاني قليلًا وقد يدق عظام رقبتها، حتى وزنها سيكون أخف من الريش، ورغم ما تلهيت من حكاياتهم وقصصهم، حتى في تصنعي الفتاة الغامضة، لا يزال كل ذاك يخيفني كل ليلة، وها قد كان، وصرت إلى رب رحيم علم أنني ساذجة ضحية، مغفلة"
أخذ الرسالة ووضعها في جيبه، تكوم عند رأسها ووضع يده فوق رأسه يغشي بها عينيه عنها، بدت الصورة واضحة بشدة، كل شيء قد انفك غشاوته أمام عقله وأمام المشاعل حتى النور يفضح ملامحها الباردة الهادئة، فرد قدميه ثم قال بحسرة:
-ما من حكاية ستناهز مأساتك وإن كانت ضبابية، حتى حكايتي ليس بها شيء يقال؛ مجرد شخص أعمل ذكائه على حساب فتاة، والفتاة صارت جثة، والجثة صارت جثًا ضمت صالحًا بطالح
نظر إليها ثم أردف:
-هل تطيب لي حياتي ومصيري، أم سأكون أمامكِ خاسر كبير هناك.... لو التقينا؟

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*
مضى اليوم كما يمضي، مر ناقصًا أو كاملًا فقد مر على هذه الأقبية كما مر على أرجائها، يوم مر بلا دم ولا قتل، هدنة خلبت عقولهم بعد سلب روحيّ فتاتين فبات الجميع في سكون وحفتهم التوجس والخيفة لكنهم يتغافلون عنها بعالمهم الغريب.
ومن بين هذه العوالم نجد عاصم يعيش عالمه المر، يسير بحمل ثقيل يعجز قدميه على الحركة، وسط زفراته وشروده يحرك نفسه إلى جثة ماريان فينظر إليها نظرة ثم يعيد الغطاء كما كان ويرتمي بعظامه إلى الأرض بمحاذاتها، يجهد نفسه في تفقد بثور صعدت على وجهها أو ثنيات خفيفة يخفت فيها الوجه وصفائه، فرد ظهره على الأرض ليمتص الألم فوجد رائحة بها لسعة من نتن فيشتد أنينه وتمتم في حسرة:
-ليت الموت يترك أجسادنا باقية
زحزح نفسه إليها وقد ترك دموعه تنساب وأردف:
-أما كفاه أن سلب حركاتنا، منعنا الحلم وطوى صفحات الأمل
أمعن النظر في قسماتها الباردة ثم عض شفتيه، يحاول كتمان حسرة غير مجدية تجلب أخواتها لتقضي عليه، لشدة كتمانه ارتجف رجفة وصوته المبحوح ينفس عنه بقوله:
-ما الحيلة في أن يظل هذا الجسد في وادٍ جميل بأبهى حلة، تزوره روحها إن اشتاقت
أمسك ذقنها وحركه ناحيته ثم سأل بلهفة:
-أفي الجنة شوق؟
أرسلها مجيبًا على نفسه:
-وإن لم يكن هناك، أليس الفضل لا ينسى؟ أليس من حق الوفاء أن تظل أجسادنا مصانة عن هوام الأرض، كيف ينسى الغريب وطنه
وظل على ذلك إلى أن وقع نفس الأقدام وهي تقترب، تتسع أذناه ليسمعها وهي تعزف ذكرى الوداع الأخير، وها هو الفراغ الكبير من جلسات الموت يسد بفاجعة أكبر، وفي كل الحالات تمر

على محطة الحياة المفضلة، وهذه متعة التضاد
ظن أنها النهاية فتأهب ينظم أنفاسه، اقترب من أذنها هامسًا:
-ها أنا قادم إليكِ، ستسمعين حكايتي على الجانب الآخر
أغمض عينه على صوت رجة القفل الحديدي، وإذ بصوت حاد يصيح:
-أنت! أحضر الجثة وتعال
قطب حاجبه متعجبًا وهو لا يزال على حالته، كرر الصوت صيحته قائلًا:
-ألا تسمع؟! اجلب الجثة وتعال
لم يتكلم وقد ابتلعته الصدمة، والصوت الملول سدد كعب بندقيته إلى صدره، ثم تكلم بصرامة:
-ليس هناك مكان لحفرتين
وكانت تلك ما جعلته يتحرك ناحيتها وتقوم رجليه على الصمود حاملًا إياها بيديه، ثم خرجا وصعدا من ذاك القبو إلى أرض صفراء فوقها الشمس، شمس؟ كان قد آخر ما عرفه منها كان قبل أسبوعين في ساحة السجن العمومي، بدا أمام الضابط وعسكره-من بينهم الجندي الصائح- الماثلين حول الحفرة أنه لم يكترث أو يصاب بلوثة، لاحظوا أن عينه ملتصقة بماريان وهو لا يزال ممسكًا بها رغم ارتعاشات قدمه، مط الضابط شفتيه ثم قال:
-أهي قريبتك؟
قال في شرود:
-لا، ماتت عندي
-وما أجلبها عندك؟
-تعرف جيدًا؛ هي وأختها...
قاطعه في ملل قائلًا:
-لا أريد أن أعرف، قد تعبت أذناي من هذه القصة
نظر إليه وتمتم بمرارة:
-عل جسدك وكيانك وقلبك أن يكونا بخير
أمرهم بالمضي قدمًا، لم يسيروا بعيدًا، تراءى لعاصم حفرة من بعيد بين كثيب رمل، تقدم بأسى ثم صاح الجندي:
-القها
فينحني ليضعها برقة ينظم يديها وقدميها، فقال الضابط هازئًا:
-"حنتقة فارغة"
أهالوا التراب سريعًا عليها، وربما لم يسمع الضابط كلمته الممزوجة بالألم
"عسى هذه الأكتاف أن تمنعك من رؤية ما رأيت"

..*.*.*.*.*.*.*.*.*

24 أكتوبر 2017

وقت طويل قضاه رائد بين لعب بأنامل أصابعه وهز قدميه دون كلام؛ كان راقدًا على كرسيه في غرفة مكتبية فخمة بعض الشيء، تتزين إحدى جدرانها بوشاح أخضر عليه نسر الجمهورية اللامع وفوقها آية كريمة مزخرفة على قطيفة سوداء "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"، لم ينتبه إليها رغم كل ذلك إلا بنظرة استكشافية أوقفته عن عبثه قدر رشفة من فنجان قهوة، ثم يرجع، مكث على ذلك ما عجز عن عده أو تكاسل عنه، وما أن سمع حركة حذاء يدب الأرض وقف منتبهًا وقلبه يهز صدره، وإذ بصديقه "جابر عطا الله" يقف أمامه قائلًا بهدوء:

-المحامي العام بانتظارك

قال رائد متشوقًا:

-ماذا فعلت معه؟

-كل خير

-كفاك كلام فضفاض

هز كتفيه وقال:

-ليست أول مرة، ستسمع له وستعرف

عدل رابطة عنقه ثم قام خلفه، غاب كل شيء أمام عينه، لسانه يلاعبه فينفلت بتمتمة بها اسم "رشا"، عقله يحاول إمساك الزمام لينقذ نفسه، وفي كل دبة نعل يزداد الصراع حدة، مغريات وأشواق تفتح فجأة عليه فتزيده خوفًا، وما يجد العقل إلا ملتجئًا وحيدًا لينهي الصراع، يغلق على نفسه الجدال بطريقة ساذجة "إذاعة الانهيار التدريجي" أعمل أدوات التشويش وتباطؤ الحركات، وحين سمع صوت وقور يرحب به عاد إلى ما كان عليه، يستقوي بهذه الهيبة التي تساوم لسانه، تكفيه رهبة من وجه الرجل صاحب اللحية القصيرة والوجه الدقيق المليء بالخطوط التي تنبئ عن خبرة وقيمة كعادة أرباب هذه المهنة، لكنها تستند على ما خلف ظهره من شهادات وتكريمات وأوسمة، ضمن بها أن لسانه لن يقدم على مثل هذه خطوة، فيبتسم قائلًا:

-أهلًا بك سيدي، تشرفت برؤيتك

أومأ برأسه ثم أجلسهما، وبعد لحظة صمت وجيزة قال جابر مبادرًا:

-سيد رائد رجل معروف بالنزاهة والطيبة، لا يخشى في الحق لومة لائم

ابتسم عاصم واعتدل منتشيًا وقال:

-ولأجل نزاهتي أتيت لك لإنقاذ فتى ليس له ذنب

قال المحامي العام بتعجب:

-وما المطلوب تحديدًا؟ لم أفهم من جابر شيئًا

-سيدي بخلاصة الأمر هناك فتاة تعمل عندي معروف أنها مصابة باعتلال في القلب، وأمر الله قد حل عليها على مقربة من الشرفة فاختلت ووقعت بعد أن استرد الله وديعته

رمقه المحامي باهتمام ثم أشار إليه بأن يكمل، فاستطرد:

-رآها موظف من شركتي وهي تقع، لم يستطع اسعافها فطاش عقله وقال أنا قتلتها

-وماذا بعد؟

هز كتفه وهو ينظر إلى المنضدة الخشبية بلا إجابة فلحقه جابر متوددًا:

-استاذي العزيز، هو يخشى أن يتذكر ذاك الحدث، حتى أنهم لم يستدعوه إلى النيابة للتحقيق واكتفوا بأن يتعرف على الجثة في المشرحة لما رأوه من حالته الصحية

رفع يده مردفًا:
-بالمناسبة، هي لا تزال فيها
قال مستنكرًا:
-ولم؟!
-في الأوراق لا تزال معلقة لحين إثبات الصفة التشريحية
عقد المحامي حاجبيه ثم وضع يده على الأخرى قائلًا:
-غريب أن تلميذي لا يعرف الدرجات الروتينية، أيصح هذا؟!
جحظت عينيه فصاح بما لديه من إنكار:
-لا لا، شعرنا فقط بتلكؤ النيابة في إصدار تصريح الدفن للمرحومة
نظر لرائد ثم زفر بقوله:
-وللأسف سيدي هناك ضابط لا يتمتع بالمرونة التي علمتها لنا
ضحك ساخرًا واستطرد:
-تصور أنه يريد تدمير شخص كفؤ لأنه قال "قتلت"
-لكن البينة على من ادعى
قال ممازحًا:
-إذن فلنحاكم الناس على أقوالهم، سأرفع قضية على الفنان الراحل "أحمد زكي" لأنه قال "كلنا فاسدون"
ضحك المحامي العام ثم قام ناحية جابر مربتًا عليه قائلًا:
-أرنى إثباتاتك يا تلميذي الماكر
أخرج جابر من جيبه ورقتين وأخذ يشرح ما بها من وصف للعلة وما نقله من شهادة الطبيب والعم يونس، فأومأ الأستاذ وهو يضع الأوراق في مكتبه وقال برفق:
-ندرس الأمر وسأبلغك بالقرار يا جابر
ابتسم جابر ابتسامة ثقة ثم قام وتبعه عاصم يغمغمان بكلمات التوديع ويغادرا إلى الردهة، بقيا صامتين إلى أن وصلا مدخل العمارة فاستند عاصم على الحائط قائلًا:
-كدنا نكشف
ارتدى جابر نظارته وهو يسأل:
-على ماذا؟
-لا شيء، كنت سأعترف أمامه فقط
-مسكين
امتعض وجهه فأردف جابر:
-في كل الأحوال أنت طمأنتني أن الفتى فداك حين صرخ بنفسه، وبما أن الكاميرات لم تكن تعمل منذ أن ثبتت فلسانك سينبههم لتشريح الجثة، فلا تقلق
بهت وشعر بشلال عرق يتصبب من رأسه وهمس:
-يعني حديثنا كان بلا فائدة؟
-لا
-لماذا؟
-لا أظنك جريئًا لتصارح
تنهد ثم أخرج سيجارة ملفوفة وأشعلها، تذكر شيئًا جعله يضحك في أول نفثة وأخذ يسعل حتى اقترب من الوقوع، لحقه جابر مندهشًا بقوله:
-ماذا دهاك؟! ستفضحنا

التقط أنفاسه ولوح بيديه مجيبًا:
-أعجبتني بهذا الكلام الغريب
ابتسم بتيه فأردف متسائلًا عن سر ذلك، يعلم أن القضية سهلة لكنه اختار أن يصل إليها ببعض التملق الوجيز في حديثه والصعب في توليفه وجهيزه، فقال جابر متساهلًا:
-الأمر يسير جدًا، لو كان عليّ كنت قدمت بلاغًا للنائب العام وينتهي الأمر
سرت في جسده رعدة خفيفة ثم قال:
-لكنني صنعت كما يصنع الولد بأبيه؛ يلتجئ إليه فقط ويسرد ما بدا له
قال رائد بدهشة:
-ألهذه الدرجة تحبه؟
هز رأسه وأكمل:
-لذلك ليس عنده غير حل واحد
-ماذا؟
-يطيب خاطري
سكت متفهمًا، ثم نوه إليه قائلًا:
-على كل حال سيأتي إليك تصريح الدفن بعد يومين، لا أريدك أن تبكي وتتعبني
وجم ثم قال:
-نحاول
ردد جابر ساخرًا
-بضع سحجات وكدمة أتعبت أعصابك، كيف إن رأيت شقًا طوليًا على الصدر وقد أخذوا القلب منها؟!
-داوها بالتي هي الداء
-ستهوى سكرتيرة أخرى؟
-بدأت تفهمني يا جابر، حقًا جابر
وأخذا يضحكان طول الطريق، تلاشى في عقل رائد ذنبها ولحظة موتها أمام عينه، بسبب واحد جعله يغطي جريمته وذكرياتها حتى تستفزه مضغته لأن ينساها تمامًا، لكن من سخرية الأقدار أنه سيراها وتخرج أمامه بالمنظر الذي سيعيد الذنب إليه بأشد ما يكون، ولعل هذا ما جعله يخفف من ضحكاته

..*.*.*.*.*.*.*.*.*

من بعد دفن ماريان بقي عاصم جالسًا في الزنزانة بلا حراك، زينوا يده وأقدامه ببعض الأصفاد والأثقال الحديدية سلاسلها تضع له حرية الاستلقاء أو الجلوس القرفصاء، لكنه استغنى عنها بالجلوس، معروف أن هذه حالة التأهب للموت بالنسبة إليه؛ هنا ليس له حاجة للمقاومة ولا النزاع بين حدسه وعقله، كل الخطوط تتلاقى دونما اعتراض ولا توجس، فما يفعل المرء انتظارًا لهذا الضيف، أخذ يردد- كلما تردد حارس أو سمع صوت عيار ناري ينغرس في صدر أو يفجر رأس أحدهم- سؤالًا "ماذا إن علموا أن الموت سيأتي في يوم محدد، أتكون حياتهم فاضلة ليرثوا الجنة؟".
والمميز في هذه الأيام ليس بالكثير، إن هو إلا يوم فتح أوراق ماريان ولوزاتها السبعة يتأمل فيها هذه الكلمات وهي تجسدها، تخرج أمامه صورة علقت بذاكرته؛ ذاك الجسد صاحب الزرقة الخفيفة التي تعبر عن مأساتها، حياة شاحبة سخيفة أصدرت حكمها دون رحمة ولا حتى تبين، وهذه الحبات تضيف روحها العطوفة التي تغافلت عن الموت به، كان على لسانها أمنية ولو

كانت بسيطة، لكن دفعتها للتمني.
قرب عينه لهذه الحبات ثم تمتم:
-لو كانت تعرف أن الموت سيأتي بها لهنا، أكانت ستمنحني هذه؟
آتته نفضة ضحك قائلًا:
-لو كانت تعرف، كانت ماتت من الجفاف من إكثار التبول
ضم الورقات الأربع مع حبات اللوز في جيبه، ثم همس:
-لا يبعد الموت هذه يا صغيرتي البريئة
أخرجت يده بعدها صورة فتاة صغيرة مطوية داخل رسالة، تفرس فيها ليجدها شبيهة بيوسف صاحبهم السابق، أسعفه ما بقي من عقله ليتذكر حديث صاحبه عن أخته الشهيدة، رفع الصورة لعينيه ثم تنهد قائلًا:

-هي الوحيدة التي ما فعلت شيئًا لذاك المصير
أدركته الدهشة وقال:
ليست وحيدة، هناك غيرها كثير من أنقياء السريرة
التفت للصورة ملاحظًا بسمتها وهمس:
-ما ذنب الصغيرة لتموت ويرى احتضارها العالم كله؟
وضع الصورة جانبًا ثم ارتمى محدثًا صلصلة عالية، قال بإثر انتهائها:
-لماذا صار كل ذلك أمام مسامعي؟
تنهد ثم قال بألم:
-بل لماذا أتيت؟ غرض شيطاني لأجل ماذا؟ أدور حول نفسي منسجًا متاهة، كمن فتل الحبل ليلتف حوله ويعتصر رقبته، النهايات واحدة والعذاب متشابه، كيف يميز هذا بين نعيم وجحيم
حاول أن يعتدل فرأى صورتها وتمتم:
-كيف رأى أخوكِ معاناته بين الرصاص، أيكون كتشاوكويسكو رئيس رومانيا السفاح؟
ابتلع ريقه ثم استطرد:
-كلاهما اتفقا في نفس المصير، كيف استطعنا التمييز بينهما؟
نظر إلى السقف وقال:
-حتى أن ماريان أحبته، وأحبت شوقه إليكِ يا صغيرة.

رفع يده ثم تركها تهوي على وجهه وقال:
-شتان يا حزين بيني وبينه
ازدرد لعابه ثم استطرد:
- وعلى كل، كلهم مات ليدفع فاتورة عمله، كلهم لديهم دفوعًا ستشفع لهم
قام مسرعًا ثم أدركته الحسرة وقال:
-أما أنا لا أعرف من سيشفع لي، رقاب تتعلق بي تستنزف ما معي، تصيره ضدي، شاهد أبتر لا يعرف تقديم دفوعه وقد ماتوا، حتى وإن ردت إليهم الحياة أيرضوا سماع حديثي؟
قال وهو يهز كتفيه:
-ولم العجب؟! أنا أقل وزرًا منهم، أنا مجرد مشاغب هاج على زملائه
امتقع وجهه ثم همس بفجأة:
-ويلاه! أتتبرأ مني دفوعي رغم ذلك؟!

قال متلهفًا:
-علّ قلمي وأوراقي ستشفع لي، هذه الأشياء تعرفني وتعرف براءتي
انطفأت اللهفة فانكفأ على وجهه ثم وضع ذراعه إلى جبهته متململًا:
-ماذا يفعل من يئس وبدأ عده التنازلي؟
تثاءب ثم أردف:
ما أجمل أن يقبضني الزائر وأنا على سجيتي

" ما هذا الضوء؟ أجاء الصباح سريعًا؟"

فرك عاصم عيناه الحمراوين وحك ذقنه النابتة، لسانها يمارس تريضه بكلمات السخط على من طرد ما ألفه من الظلمة وهمسات زوارها، صبر نفسه بالتقلب ووضع كفيه على وجهه فتعود الظلمة كما كانت طيلة هذه الأيام، ولكنه يسمع صوت تصفيق يفزعه فيقوم مفزوعًا لتعصر الأصفاد عظم معصمه فتوجع كاتمًا صرخته، أضواء جديدة مع هذه المشاعل تظهر رجلًا نحيفًا يقف بتؤدة وهدوء، الضوء ينساب -بين حواجبه الخفيفة وتجاعيد وجهه -ليشكل رسمة من اللوحات السيريالية يتهافت عليها من أراد التعلق بركب المثقفين، ويزين، حركات عينه بعثت في قلب عاصم الرهبة فحاول أن يعتدل قدر ما اتاحت أغلاله.
بينما هو كان يخفي شفقة ورأفة بحال الفتى؛ يرى فيه ندم آدم حين خرج من الجنة ينتظر كلمات ربه تلهم إليه فيتلقفها بشوق، لكن خليطًا بشعًا سكب على قلبه فقطع سبيله؛ اليأس والنسيان مع الجحود يظهر كل واحد على بؤبؤ عينه حين يتحرك، فيتردد على نفسه المستنكرة جملة واحدة "أكلهم يقع في نفس الفخ؟ ألا يتعلم أبناء آدم من أسلافهم؟".

حك صلعته وتقدم نحو عاصم ثم قال بصوت حنون:
-أراك حزينًا اليوم يا ولدي

تحاشى عاصم نظراته قائلًا ببرود:
-ماذا جرى؟ أ الدنيا تبتسم لقاتل بغي؟

-ولا حتى لصالح، وما الابتسامة إلا إغواء

ربت على كتف عاصم فارتجف متألمًا، فلاطفه ببعض الكلمات وقال عاصم:
-أأنت منهم؟
-من ماذا؟
-سفير الرفاق الموتى، وجهك السمح دليل
رفع حاجبه ثم ابتسم قائلًا:
-وإن كنت أتمنى أن أكون مثلهم، أليسوا في ال..
قاطعه عاصم في جمود:
-يأنف المرء أن يرى مصيرهم السخيف
لوح الرجل بيده صائحًا:
-هذه مسائل لا يسعنا الوقت لها
جلس أمامه وقال بفم متسع:
-أنا عمك "عبد الودود" ضابط مكلف بإعادة النظر في قضيتك

تعجب عاصم فطمأنه مستطردًا:
-أنت حالة خاصة هنا؛ أول شخص هنا يؤشر على قضيته شخصية مهمة
-وماذا يعني؟
-ربما تنجو
قال متعجبًا:
-بهذه السهولة؟
مط عبد الودود شفتيه ثم تنحنح قائلًا:
-على قدر ما تساعدني
صاح عاصم في تحدٍ:
ولم ما ساعدتم هؤلاء، تركتموهم مهانين
نظر إلى الباب في حسرة، كأن ماريان قد تدلت من جديد أمامه، أحيت تعبيرات وجهها غصة في قلبه فقال وهو يكتم دمعة تتأهب للنزول:
-حتى الموت لم تتركوا لهم فيه رحمة قبل أن تطلع أرواحهم
-انتهت قضاياهم عندنا
تمتم في غيظ:
-عدالة ملعونة
قال في مكر:
-مثل المشاعر، كلتاهما عمياوات
سكت عاصم لا يدري ما يجيب به، لكنه نظر إليه نظرة معجبًا من منطقه، وتركه يستطرد قائلًا:
-نحن من يضع للأمر قيمة، هذا المسدس به عدة طلقات، ربما تخرج منه مجرد واحدة تخترق قلب أو دماغ أحدهم، لكن الناس تقييمها بالعواطف
قام يداعب مسدسه مردفًا:
-لو اخترقت قلب مجرم سيقولون رصاصة العزة، وإن أصابت أحد الأبرياء يلعنونها ويسبونها، وهلم جرا مع كل شيء تراه، تضع عواطفك فيها على المشاع تحكم لك في الأشخاص والأشياء
جلس ثم قال بنبرة ثقة:
-وكلها-على حد علمي ومعرفتي-متغيرة من هذا وذاك
أومأ عاصم برأسه فتنهد الضابط قائلًا:
-لا تتوقع أن تقنعني أمام ذاك المهرجان ببراءتهم، قريبًا حينما أصير مثلهم سأعرف الحقيقة الغائبة
اقترب منه وبادر بسؤاله:
-والآن أخبرني، لم قتلت المجنيّ عليها

-لأنها حمقاء لا تدري ما قيمة ما قدمت

أطرق رأسه ثم أردف:
-كنت طفلًا أبلهًا لم يتعلم بعد؟ ظن العشق والحب لغات معترف بها بين الأوغاد
قال الضابط متعجبًا:
-ما هكذا براءة الحب، إن هي إلا اتباع الهوى
صمت مليًا وإذ فجأة لمعت عيناه قائلًا في لهفة:
-لعلها تبعث إليّ كلمات الشكر بعد اللقاء؛ ليس بعد راحتها راحة

-لقاء من؟

-ستلقاني أنا؟ ألستم ستقتلونني بعد أيام؟

ربت على كتفه يواسيه قائلًا:

-إن مت الآن لن تلقاها أبدًا

-كيف؟ أليس يعفو الله عني ويحقق ما أرجوه

-الدم ليس بهين

سكتا قليلًا حتى هدأ عاصم وقال:
-سترون ظلمها عند قراءتكم لرسالتي ورسالتها
ألقى كلمته تصنع مفعولها من دهشة وتعجب للخيط الجديد، يرمقهم بطرف عينه بهدوء وارتياح ويسمع الضابط وهو يصيح بلهفة:
-أي رسالة؟
تجاهل سؤاله وحركات يده الحماسية؛ رغب فقط أن تغطي خرقة الحديث قلبه وتعميه، ثم قال وكأن شيئًا لم يحدث:
-كانت قاسية تستحق الموت، لكنني أحبها، هي كانت..
لم يتحمل كثرة الحديث وإطالة التشويق، فأمسك الضابط بأصفاده وجذبه نحوه في قوة، وعاصم يراقب حدقتيه المتسعتين بهدوء يستقبل به لعابه المتطاير وهو يقول:
-أتتحدث أم نعلق على رقبتك سجينًا
ثم تركه وقد أخرج مسدسًا يداعب حوافه بإصبعه وقال بشراسة:
-اشتقنا للزائر الجميل وهو يخمد الأنفاس المتعبة
صمت عاصم مليّا ثم هز رأسه موافقًا، والاثنان يجدا أنفسهما منتصرين داخل الحجرة الضيقة؛ ضغطة متكافئة تصنع محصلة صفرية أمام سكان القبو، لكنها-وللمرة الأولى- تخادعهم النشوة قليلًا لترفق بهؤلاء المساكين، ويقول عاصم وهو يعبث بالأصفاد ببرود:

-هي في شقتها في مكان لا أعرف كيف غفلتم عنها

-أين

-كانت بجوار سريرها

أومئ برأسيهما وبينما يجهز نفسه لخروج قال عاصم: ستسرع هذه في الإدانة بي

-لا أعلم على حسب ما فيها من كلمات

ثم خرج وقبل أن يغلق الباب صاح: نحن حتى الآن نتناقش معك، لست مدانًا حتى الآن

لم يسمع عاصم ما قاله بل لم يعبأ به؛ قد عادت الظلمة تكتنفه فأدركه النعاس

15 نوفمبر 2017

عاد العمل كما كان عليه في السابق، وكذلك رائد رجع إلى ضلاله القديم؛ يمارس لعبته المفضلة بأيادِ موظفيه بأن يسلب منهم شغفهم مع الأحلام الوردية المعروفة، لم يتعلم مما فعله عاصم غير شيء واحد؛ أن يسمح لأحدهم-بعد مجهود قاتل-بأن ينشر له رواية أو قصة، كأنها تحسب حجة له بأنه يدعمهم أو نذرًا نذره أمام أعتاب السيدة زينب يوم جنازة رشا من فرط ما رآه من بشاعة أخفتها طبقات الأكفان عنه، أما بالنسبة للهوى فلم يتغير غير الشكل والاسم، "كارولين" الفتاة صاحبة الأعين البنية المائلة للسواد، بهت على ملابسها وجدائل شعرها تقريبًا، وجهها الكلاسيكي وقع في قلبه فأزال رشا وزحزح مكانتها، لكنه كتم ذلك حتى لا تجد مصير صاحبتها.

شغله عن ذاك الهوى مراقبة حركات الساعة بتململ، يضغط على زر الجرس كل فينة وأخرى، فيسمع صوت "كارولين" تصيح:
-لم يأتي بعد
ومر على ذلك ساعة أو ساعتين تزيده مللًا وغيظًا، أخذ يبرطم ويتمتم قائلًا:
-ذاك التعس، أيحب أن يعلقنا بمصائره؟
وبعد ذلك صاحت به قائلة:
-وصل حضرة المدير
دلف إليه عاصم دون أن يطرق الباب، خطواته معروفة طريقها إلى الجلوس على الكرسي واضعًا قدمه على الأخرى، ناوله الملف الأزرق قائلًا:
-تفضل، جاهزة على الطباعة
انبهر رائد بها، قلب الصفحات بعشوائية ثم أطلق صافرة إعجاب وصاح:
-حقك أن تفعل ما تريد، ما هذه الروعة؟
-كفاك نفاقًا
قالها بنبرة جافة، فتراجع للوراء قليلًا يحاول استيعاب ما يقال، فاستطرد عاصم:
-اعذرني فهذه الأيام لم تكن هينة
تنهد ثم قال:
-سريعة على ما تتحمله من آلام
-أجل، كانت أقل عن شهر
قال بنبرة سخرية:
-أكنت تعد الأيام لفراقي؟
تمعر وجه رائد؛ كان يمقت أن يستهين أحد به أو برغبة تمناها، ولأن شيئًا ما جعله محرومًا من نعمة إقصاء صاحبه تراكم الغل سريعًا فصاح يفرغه:
-أكنت أنا وحدي؟ كلهم يعد الأيام بعد إيقافك لمصالحهم؛ يونس ومؤنس وابنته والموظفون، حتى الجثة تنتظرك لتدفن
قاطعه رائد متعجبًا:
-الجثة؟ في الأقبية كانوا يدفنونهم سريعًا
-أقبية؟ أهذا كل ما يشغل بالك؟
قال ببرود:
-وما المشكلة؟ إكرام الميت...
قاطعه في حدة:

-إلقاءه من سابع طابق؟! إهمالها عارية محجوزة في أحد أدراج المشرحة وسط رائحة الفورمالين؟!
ضرب المكتب بيده وصاح بصوت خافت:
-سكرتيرة يتمنى أهم كبار الشركات أن تدبر أعمالهم، أصبحت..مجرد رقم
قال عاصم في برود:
-كأنني سمعت هذا من قبل
وبفجأة أمسك يده الغارقة في العرق واقترب من وجهه، ازداد رائد رعبًا وارتجافًا، فهمس عاصم:
-الذنب يلقى على قاتلها أولًا
قال مرتجفًا:
- لكن التقارير، أنت نجوت بها
تركه ثم قال بجمود:
-قديمًا سمعوا أن القانون سيف
ربت على كتفه بهدوء:
-احذر! محتمل أن يقطع رقبتك
تحسس رائد رقبته، أعاد إليه ما أخفاه عقله ودسه في التراب، الهواجس بدأت تعد عدتها، ألقت إليه سؤالًا خفيًا نغز قلبه نغرة
"كم مرة قتلتها؟!"
صوت الجرس جعله ينتفض، رأى عاصم مشغولًا فاعتدل ثم تنحنح وهو يتمتم بآيات الحمد، وإذ بصوت السكرتيرة يقول:
-أستاذة "كندة" أتت في الموعد
..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*.*
مكث عاصم يملئ نظراته من هذه الفتاة دون كلام، ليس لأجل ملامحها التي يراها عادية مضافًا إليها بعض المظاهر الثرية لتضح الطبقية التي يمقتها، فاضطر للصمت وارتكن إلى المكتب يداعب بيديه سطحه، بينما رائد يحاول أن يغير جلده بالحديث اللبق، فيقول بابتسامة واسعة:
-مرحبًا آنسة كندة، كيف حال الوالد؟
قالت بتوتر:
-بخير، هو بخير
-نحن نعتذر إليكِ عن هذا التأخير، لكن "عاصم" أصر أن يكون العمل جيدًا
لمعت عينيها قائلة:
-يعني أنها جاهزة؟
نفض عاصم ثوبه وقال ببرود:
-بإمكانكِ توقيع العقد الآن
ابتسمت بمرح، ابتسامتها جعلت عاصم يفكر في خاطرة أتته، ونفسه تلقي إليه سؤالًا على استحياء، تجسد أمام عينيه خيالات تقف في وضع المناظرة والتفضيل، أشاح بوجهه ثم تمتم قائلًا:
-والمغفلات درجات
قالت كندة مندهشة:

-ماذا؟
-لا شيء، دعينا ننتهي من هذا
-أبي سيفرح بي كثيرًا
عقد حاجبيه فاستطردت:
-سيفرح لأنه يحب أن يرى ابنته تفرح
-فرحة منقوصة إذن
قالت بابتسامة بلهاء:
-لماذا؟
-لأن صاحبها لم يفرح بانتهائها
-هذه مشكلتك، الفرحة موجودة في كل مكان
مدت يدها في حقيبتها لتخرج وردة بنفسجية محتفظة ببعض جمالها كأنها قطفت في لحظتها، صاحت بدلال:
-هذه لك
-لي؟
زامت بشفتيها ثم قالت:
-الناس تفرح بأبسط شيء
سكت مليًا؛ شعر بالأسف لأنها ستنسب إليها هذه التجربة السخيفة، وفي نفس الوقت كان عقله مبتهج حين صدقت أخيلته حين أراد وصفها، بهجة مغلفة بأخرى كبيرة عن نجاح خطته لكنها مخيفة ببشاعتها، ما بالها لو فتحت عينيها على جانبها الأخر، أو ترى أمامها احتمالات لو نقصت متعة واحدة في حياتها، هز رأسه آخر الأمر وقد أيقن أن ماريان والشيخ بل وحتى يوسف وأخته، هما في الأصل صورًا لـ "كندة" لكنها مشوهة.
ناولها فقط الملف ثم داعب رابطة عنقه قائلًا:
-ما زال أمامكِ فرصة، عليكِ القراءة أولًا
-لكنني كنت...
قاطعها قائلًا بهدوء:
-لا يوجد مشكلة، لكنني لن أحذف شيئًا
تبدل وجهها إلى ملامح استهجان وقالت:
-لماذا؟
-أتريدي جوابًا مفصلًا أم مختصرًا
عقدت يديها قائلة:
-أبي لم يكن يضعني في اختيارات قبل
-وأنا لست أباكِ
قال رائد وهو يتصبب عرقًا:
-لننهي النقاش هذا
تجاهله عاصم مردفًا:
-ولأجل إرضائك نحاول تقسيط هذه الأمنيات
-تفضل
-الأولى لأنني لا أحب أن يعدل أحد عليّ

قالت في قلق:
-لكنها كانت فكرتي
-حتى جرة القلم أكره أن تعدل
تنهدت ثم قالت مستسلمة:
-والثانية؟
-لا شيء، ستعرفينها لو قلبتِ عينيكِ في هذه الأوراق
شعر رائد بملل فقام يضرب زر الجرس مناديًا "كارولين" بأن تحضر العقد والكاميرا، اللقطة والابتسامة المبتهجة كانتا ما أثلجت صدره وقد ضرب الوميض بؤبؤ العين، وقد حدثت اللقطة وبالنسبة إليه قد أنهى عاصم ما أنهاه غيره فلا داع للثناء والشكر المبالغ
وبين لحظات السعادة الغامرة لاحظت الفتاة ابتعاده عن الصورة فصاحت برقة:
-الصورة تنقصك
قال بجمود:
-لا أحب التصوير
أحبت أن تغير دفة الحوار فسألته متحيرة:
-أمتأكد أنها ستعجبني؟
-وما الحيلة؟! أمامكِ شهرين يلبى فيه أمرك
ثم مضى خارجًا، ترك "كندة" مترددة مشوشة، نظرت إلى الملف فازداد قلبها خفقانًا وهمست:
-لا تخذليننى أيتها الصفحات

..*.*.*.*.*.*.*.*.*

20 نوفمبر 2017
"لتوك تذكرت أباك يا تعس"
صاح بها الشيخ وهو يلعب بفتلة الخيط في نعل كعادته، لم يرفع عينه إلى مظهر ابنه الأنيق أو ابتسامته التي يعرف أنها سيطلقها من اشتياق بعد غياب لم يبقي إلا ذرات منها، أزعجه فقط ظله المرتب ورائحته العطرية، قال وهو على حالته مستهزئًا:
-امتطيت الدنيا يا ولدهِا؟!
-أخشى أن تكون ركبتنا هي
زفر عاصم ثم جلس على كرسي قريب، وضع الشيخ النعل بعيدًا ثم نظر إليه وتفحصه، ما لبث أن قال بقلق:
-تبدلت كثيرًا
-أهو بادٍ على وجهي؟
-بل وجهك قد تبدل برمته، هل اختفاء شهر يصنع بك هذا؟
صمت عاصم يتشاغل بالعبث في المقص الملقى على الأرض، وإذ بأبيه يستطرد:
-لولا أن الأب يعرف أبناءه مهما حدث لكنت أنكرتك
-جيد
عقد الشيخ جبهته ثم تمتم:
-لست أهلًا للنعمة
-ولمَ؟
-لو كنت أهلًا لها، أين ابتسامة الرضا التي تليق بهذا الرداء
قال بنفس خاوية:
-ذهبت، ماتت قبل أن تولد
تعجب الشيخ منه، أخذ يراجع عقله ويشاوره، تنقلت ذاكرته بين دروب ومتاهات إلى أن وصلت لمبتغاها، رأى نفسه وهو يسلب اللقمة من فم إخوته ثم يضعها بين فكيه ليهرسها فلا يجد لها طعمًا، واستقرت في باله نظرات الانتقاص والاستحقار إليه فنقلها في وجهه وقال ليتمم الصورة:
-نجس
تلون وجه عاصم وهب فجأة من كرسيه، فيباغته أبوه غاضبًا:
-لا تتصنع الدهشة عليّ
-وكيف عرفت أنني أتصنع
-أأتوه عنك؟
-بالتأكيد نعم، أنت بمعزل عني منذ سنين وقد أعمتك رائحة الغراء عني
نظر إلى الأرض واجمًا ثم أردف:
-بإمكانك أن تقص ما تسمعه -من جمل حوارية تخرج من التلفاز-إلى أحذيتك
أومأ برأسه مكملًا:
-على الأقل أنت تعرفها أكثر مني
سكت الشيخ مليّا، نفض عن وجهه هذه الملامح وترك الحيرة تعتريه وتقوده ليقول:
-إذن ما بك؟
-لا أدري
-أهناك من لا يدري
تنهد عاصم ثم قال:

-أجل، من كثرة ما حدث أصبحت "لا أدري" أفضل شيء
لوح بيده قائلًا:
-إذن فاحكِ ما أتعبك
نظر إليه وابتسم ابتسامة عابثة، تركها على حالها دون أن يعرف أو يميزها أهي سخرية أم ألمًا ومرارة، بطريقة لا يعرفها أدرك أنها وصلت لقلب الشيخ فازداد وجهه تعسة على تعاساته المفتوحة، وما عساه يفعل غير الجلوس في مكانه واضعًا يديه على خده، قام عاصم بعد ذلك يداعب بحذائه الأرض قائلًا:
-إن أردت السرد سيكون له كلفة ضخمة، ما مر لا يقبل التصغير والاختصار
أمسك ذراع آلة الخياطة واستطرد:
-بل لا تقبل أن تحكى وتقال كما هي؛ كأنها معاناة ما يستطيع أن يصدقها بشر، وليس بهم ملامة ولا عتاب؛ فهم ببساطة يجهلون ما يدور في بال أحدهم، ينصحوه بخبراتهم ويقفون على أوجاعهم الذي يدرون بها ويعرفونها
التقط الشيخ سيجارة ملفوفة ثم أشعلها بعود ثقاب، تركه يأكل نفسه ليبعث برائحة "الفوسفور" المحترق، ولما ارتعد بنشوة الرائحة قال بهدوء:
-ليس بجديد عليك الشكوى
-وهل تراني شاكيًا؟!
-أتظن أن تهويلك لهذه الأمور شيئًا غيرها؟!
أدار ظهره قائلًا بيأس:
-فالحديث غير مجدٍ معك
قام الشيخ ثم صاح:
-يا ولد، ما بالك قد أسأت الأدب
قال عاصم ببرود:
-لا أدري، ربما قد حدث
-أي فلسفة هذه؟
التفت إليه، رأى في مقلتيه أسئلة كثيرة تتعلق بالعروق النافرة ببياضها، عز عليه أن يجيبه على كل ذلك، لكنه رأى لسانه ينحرف فلا يصيب الكلمة ولا يجيد الجملة في محلها، زام بشفتيه ثم أطلق صافرة منغمة حزينة، راقب نظرات أبيه وهي تسعى بين تيه وعجب، وفض هذا كله حين فرك عينيه قائلًا:
-أتى كل شيء بفجأة غبية، في ذروة شعوري أن الأحداث ملك يدي أقع تباغتني بانفلاتها عني، إيقاع سريع لا أعرف أن ألتقط أوله من آخره، وحين يجتمع تقع بثقلها عليك
ضرب رأسه ثم صاح:
-لا.. لا، تظل معلقة تهاود ما علقت به
قال الشيخ متعجبًا:
-وكل ذلك كيف حدث
-كدوي الانفجار
قطع حديثه صوت هاتفه يرن برسالة، ترك الشيخ في دهشته وابتعد خارجًا، وحينما هم بفتح الهاتف وجد صورة "كندة" وقد كتبت له
"عليّ مقابلتك فورًا"

مكان هادئ إلا من بعض الموسيقى التي تذوب بين شرق وغرب، متجانسة فيها بعض الهمهمات التي لا تسكن، لكنها تتصاعد من ركن إلى آخر على حسب رزقها؛ انكسار أو فرحة أو نبرة نسائية غاضبة تصوب نيران لسانها على تعيس الحظ، وكان ذلك ما استطاع عاصم أن يلتقطها بعينيه المتلفتة في هذا "الكافيه" الراقي نوعًا ما بهذه المقاعد والأشكال، بل وحتى المناظر والسنح المتناثرة أو الطائفة الدوارة تحمل الأكواب، وقعت عينه على منضدة كبيرة بجانب الشرفة، تلبث عاصم مكانه يحرر رابطة عنقه قليلًا ثم أرسل مشاعر الانقباض في وجهه، وكأن أصل المنضدة وجالسيها يحيي أمامه جلسة الموت، ثم أخذ يضحك ضحكة مكتومة لاختلاف المصير، مشهد مكثف قطعته يد "كنده" وهي تلوح له بعصبية، تجمد مكانه لبرهة ثم تنحنح وتقدم ناحية كرسيها وهو يمثل بنصف انحناءة قائلًا:

-عذرًا على التأخير يا آنسة

رآها تتلعثم وتؤدي حركات تشنجية فقال بهدوء:

-ماذا جد؟

نظرت إليه قائلة بصوت مبحوح:

-أكنت تراقبني؟

-من؟! أنا؟! وكيف أراقب من لا أعرف غير اسمه؟

زفرت قائلة:

-لكنك كتبت عني، هذه الفتاة المعذبة مع الطفلة الصغيرة هما ذاتي

-وهذا جيد

-وما الجيد هنا؟ كشفتني أمام نفسي

هم بالجلوس ثم قال بأعصاب باردة:

-هذه المهارة، فضلًا عن حظك

-أي حظ؟

لمعت عيناه ثم صاح:

أنتِ ابنة رجل مرموق مهم، من حولك سيظنونكِ مدللة تحت ظل أبيها تستمد القوة منه، وربما إن رأوا منكِ هذه لاعتبروه شيئًا جميلًا عبقريًا

قطبت حاجبيها ثم ضربت المنضدة وقالت:

-لكنها قاسية

ابتسم ابتسامة ظفر فأزادها غيظًا، تركها لدموعها وهي تبلل خديها ثم أشاحت بوجهها عنه، أخذها فرصة جيدة للتهدئة وقال بلطف:

-الفضل كله يرجع إلى فكرتك الوردية

همست بنبرة طفولية:

-لكنها سعيدة

-والسعادة غير مطلوبة هنا

-إذن فلندع نهايتنا سوداء مثلهم

هز رأسه نافيًا، فصاحت:

-كيف للطفلة أن تموت هكذا؟

-يموت مثلها آلافًا كل يوم

صعقت ووضعت يدها على وجهها من هول الصدمة، فاستطرد عاصم بملل:

-هذه قد مات بجوارها ألفًا هذه الليلة
-وكيف عرفت؟!
-هؤلاء الثلاثة قد سمعت عنهم
-يعني أن "ماريان" حقيقية؟ ....يا ويلي
تنهد عاصم وأخذ يشرح لها عن الثلاثة، أجهد عقله في كل كلمة قالها، يقص من الحكاية ويلصقها بجزء آخر، شيطن أشخاص ووضع آخرون مع الملائكة، كان بالنسبة له يوم سعده، من النادر أن يقنعها ويقنع نفسه بأجزاء للرتق ما صعب عليه من أسئلة وتراتيب سيق إليها دون فهم وخرج منها دون أن يدري برحلته، ولما انتهى تنهد وألصق ظهره بالكرسي يلتقط أنفاسه، راقه بعد كل ذلك ابتسامة "كندة" وهي تقول:
-على كل، هي رواية جميلة، كيف صنعتها
تظاهر أنه لم يفهم فاستطردت:
-أعني أن هذا ما ينقصني، أنا كاتبة مثلك أكتب، كانت "ميس صفوة" مدرسة العربي تمدح فيّ وقتما وصفت الزهرة والربيع، مدحًا بحق رأيته في عينيها، ولأجل أن تصقل موهبتي أتت لي بعدة كتب كبيرة، رأيت مصطلحات غريبة وغبية كثيرة؛ كيف للمراهقة أن تخلط الأوزان والقوافي والتجربة الشعورية والملامح الوجدانية البديعية؟
تنهدت ثم قالت:
-سامحها الله! أكيد أنها أرادت إصلاحي
-عللكِ ستكتبين بثقة في المرة القادمة
ابتسمت بدلال ثم قالت:
-أتمنى، لكنك لم تجبني، ماذا تصنع لكل هذا الإبداع؟
هز كتفه وقال متساهلًا:
-هكذا، صنع نفسه وأنا ساعدته
ثم وقف وانحنى مبتسمًا وهم بالخروج فإذ بها تصيح:
-أليس هذا أحق أن تنسبه لنفسك
ضحك قائلًا:
-لا
-ستخسر كثيرًا
-ربما الآنسة رشا لم تخسر حين وهبت روحها للفتى المسكين

ما بعد معرض الكتاب "منتصف فبراير 2018"
"تهانينا الحارة آنسة، الطبعة الثانية قد نفدت"
راق لكندة قول السكرتيرة فابتسمت ابتسامة هادئة، وبحياء خطت خطوة للاقتراب منها قائلة:
-شكرًا، لكن هناك من سبقك
-أعاصم هو؟!
أومأت مغمضة عينيها، وربما كانت إيماءتها شيئًا دفع كارولين للجلوس ونزع وجه الابتهاج، فراعها كندة وقالت:
-ماذا حدث؟ أجرى له شيء؟!
-لا، هو منشغل مع المدير فقط، أصبح له حظوة وسيطًا كبيرًا بفضلك
-أنا؟
-هذه بتلك
قالت متعجبة:
-تزنين الأمور بسطحية
-يجب أن يعرف قدره، أنتِ ابنة..
قاطعتها لتصمتها، رفعت رأسها ثم قالت بفخر:
-هذه الأسماء مثل اخوتها تنفع صاحبها فقط، وددت أن أنفع نفسي
اتسعت ابتسامتها حتى بدت النواجذ وأردفت:
-هكذا علمني عاصم
رمقتها السكرتيرة في توتر سائلة إياها:
-ما سر ذاك الاهتمام؟
-قال إنني أشبه شخصًا أحبه، لكنه لم يسعفه أن يلقاه
-رائع، لكن احذري منه
-لماذا؟! أتخافين من أن ينسج مني حكاية لغيري
قالت كارولين بخجل:
-أجل
طمأنتها وهي تغادر:
-اطمئني، لي شرف أن يجعلني بطلة بين هؤلاء الناس، يود أن يعرفهم أن هناك من لا تراهم لكنها ليست تختلف عنهم في شيء
أثار بريق ماسة في يديها امتعاضها فصاحت كندة خجلة:
-إلا من بعض الرتوش
ثم انطلقت مرحة إلى مكتب رائد، جاء على إثرها العم يونس فصاحت إليه كارولين:
-أحضر لي قهوة سادة، تكاد رأسي تنفجر
أومأ إليها وأكمل طريقه، انتهزت فرصة انشغالهم عنها لفتح درج مكتبها وتخرج صورة ثبتت عينيها فيها، فتحت بداخلها ألمًا مريرًا دفع مقلتيها للتهيج، وكأنها ترى كل شيء يجسد بتعديل بسيط جعلها هي البطلة، ابتلعت ريقها وتنهدت لتضع الصورة في محلها، ثم أخذت تداعب المكتب بطرقات أناملها وهي تتمتم:
-منكِ نتعلم يا زميلتي، علمتِني الحذر

تمت بحمد الله

10 فبراير 2021